زرت فلسطين

زرت فلسطين

مهدي حنا (كاتب فلسطيني)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، مجمع المفلح التجاري (87)، ط1. هاتف: 65620722.797162720(962+)
alaan. publish@gmail. com،
alaanpublishers. com

تصميم الغلاف: الفنانة ربى حنا

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN:978-9923-13-479-5

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(785/ 2/ 2022)

818 .050564

حنا، مهدي سليمان

زرت فلسطين/ مهدي سليمان حنا. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(232) ص

ر. إ: 785/ 2/ 2022

الواصفات: / اليوميات/ / المذكرات الشخصية/ / السيرة الذاتية/ / المناطق العربية المحتلة/ / فلسطين/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

مهدي حنا

زرت فلسطين

الإهداء:

إلى ذكرى المرحوم والدي المناضل سليمان حنا الذي وُلد في فلسطين وأُبعد منها إبان الاحتلال الغاشم عام 1967، وأبى أن يفارق الحياة من دون أن يعود اليها، فعاد.

(2000 – 1925)

المقدمة

لا يندرج هذا الكتاب تحت المصنفات البيبلوغرافية (المذكرات الشخصية)، بل يتطرق إلى الكثير من المشاهد الحية التي لم تفارق مخيلتي عندما زرت فلسطين شابًّا يافعًا بتصريح من الاحتلال في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وأعدتُ الكّرة بعد ذلك بسنوات كثيرة.

هذا الكتاب بقعة ضوء تعكس ما رصدته عيناي عند زيارتي لفلسطين للمرة الثانية بعد انقضاء 37 عامًا. وهو بمثابة سرديات تركز الضوء على مدى التغير الذي طرأ على واقع الحال مع دوام الاحتلال. هو وجهة نظر وتحليل سياسي اجتهدتُ في تقديمه ووضعه بين يدي القارئ عن فلسطين التاريخية وما أصابها مع سنواتِ الاحتلال. أنا ابن عائلة مناضلة، عشت في فلسطين سنوات معدودة بعد ولادتي، لم تتعدَّ السنوات الأربع، حين أجبرت سلطات الاحتلال عائلتي على مغادرة مدينة القدس مع بدايات الاحتلال عام 1967 وحكمت عليهم بالنفي إلى خارج فلسطين. فوالدي من أوائل المبعدين من القدس بعد الاحتلال بعام واحد، فكان قدرنا أن نترك القدس مرغمين ونعيش في المنفى، لكن أعيننا كانت ولا تزال على فلسطين، هذا الوطن الجريح الذي يناجي أبناءه بالعودة.

هذا الكتاب هو قراءة جديدة للتاريخ الفلسطيني الحديث، يتحدث عن مدينة القدس مسقط رأسي، عن عروبتها وملفها الشائك. يرصد بلدة الطيبة الواقعة شرق مدينة رام الله التي أنتمي إليها، ومسقط رأس أبي

وأمي، يتحدث عن الريف الفلسطيني، عن الحياة في الريف، عن واقع الإنتاج الزراعي والتحديات الجاثمة أمامه نتيجة للعراقيل المقيدة لنموه من قِبل دولة الاحتلال، عن واقع الحياة الاجتماعية في فلسطين في ظل الاحتلال ومعاناة الفلسطينيين في حياتهم اليومية وسبل عيشهم، عن الواقع الاقتصادي والصعوبات التي تحدُّ من تطوره بوجود الاحتلال المعرقل للتطور، ويسلّط الضوء على مراحل تطور الحياة السياسية والحزبية في فلسطين منذ بدايات القرن العشرين حتى الآن ودورها في النضال الوطني الفلسطيني، وعن السلطة الوطنية الفلسطينية بعد اتفاقية أوسلو. يتحدث الكتاب في ثناياه عن ارتباط الفلسطينيين بأرضهم رغم الواقع المرير الذي يعيشونه، عن واقع الهجرة والتهجير القسري، عن المدن الفلسطينية وما اعتراها من تغيّر مع الزمن في ظل وجود الاحتلال، عن مدن الساحل الفلسطيني والواقعة داخل الخط الإخضر. عن النضال الوطني الفلسطيني في مقاومة المحتل، وعن الشباب الفلسطيني وطاقاته الملتهبة في الدفاع عن فلسطين التي تبقي الأمل دائمًا بحتمية الانتصار والخلاص من الاحتلال وزواله.

بالفعل كان اكتشافًا جديدًا لفلسطين التي تستحق ما قاله الشاعر محمود درويش:

على هذه الأرض ما يستحق الحياة،
على هذه الأرض سيدة الأرض
أم البدايات أم النهايات..

كانت تسمى فلسطين

صارت تسمى فلسطين..

إليها ننتمي وإليها سنعود أحياءً أو أمواتًا، جيلا بعد جيل ليبقى اسمها مخلَّدًا، وعلمها مرفرفًا عاليًا في سمائها الحرة رغم أنف الاحتلال البغيض.

رحلة الذهاب إلى فلسطين

لم يغمض لي جفن ليلة السفر، وأنا غير مصدق بدنو ساعة السفر. ابتدأت في الصباح الباكر أعد العدة لهذه الرحلة التي حلمت بها مرارًا وتكرارًا خلال السنوات الماضية التي امتدت على مدار سبعة وثلاثين عامًا. حانت ساعة الصفر، غادرت البيت مع زوجتي في الصباح الباكر قاصدين مطار دبي الدولي حيث أقطن أنا وزوجتي وأولادي منذ اثنين وعشرين عامًا. ركبنا في أولى رحلات الصباح متوجّهين إلى عمان، ووصلنا في تمام الساعة العاشرة صباحًا إلى مطار الملكة علياء الدولي. كان يهيئ لي أن الوقت يمر ببطء شديد وكأن عقارب الساعة قد توقفت، مع أن زمن الرحلة لا يتعدى ثلاث ساعات فقط.

عندما بدأت الطائرة بالهبوط التدريجي نحو مطار الملكة علياء الدولي نظرت من شباك الطائرة وهي تدور حول المطار للهبوط، وصوبت نظري نحو فلسطين مع أني لم أر شيئًا في الأفق، إلا أني كنت سعيدًا بأني ذاهب إلى فلسطين. لم يكن هذا اليوم يوما عاديا بالنسبة لي، بل يوما استثنائيا. بعد الانتهاء من إجراءات التفتيش والجوازات، تسلمنا حقائبنا وغادرنا المطار على عجلة وتوجهنا إلى جسر الملك حسين مباشرة.

كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أمر فيها عبر الأردن مرورا قاصدًا الجسر لعبوره باتجاه فلسطين، فقد تعودت على مدار السنوات

الثلاثين الماضية أن أتوجه إلى الجسر إمّا مودعًا وإمّا مستقبلًا زوجتي وأولادي الذين يحملون الهوية الفلسطينية، أو الأقارب الذين يقصدون الأردن للزيارة أو لقضاء مصلحة معينة. عند وصولنا إلى الجسر افترقت وزوجتي، فقد ذهبت هي في الطريق العادي لعبور الجسر عند منطقة التفتيش الأردنية كونها من حملة الهوية الفلسطينية، وتوجهت أنا بدوري إلى قسم الأجانب كوني أحمل جنسية أجنبية كنت قد حصلت عليها في وقت سابق من هذا العام.

أتممت إجراءات السفر في نقطة الحدود الأردنية وكانت الإجراءات سريعة وروتينية، وطلب مني الضابط أن أنتظر في القاعة مع بعض المسافرين من الأجانب، حينها سألت الضابط الأردني عن الخطوة التالية وكان جوابه لي:

ستنتظرون هنا في القاعة حتى تأتينا الإشارة منهم (يقصد اليهود) على الضفة الأخرى من النهر، ليأذنوا لنا بإرسال الحافلة التالية، وبعدها ستستقلون الحافلة وتعبرون الجسر باتجاه نقطة التفتيش الإسرائيلية.

انتظرت برهة من الوقت، وقبل أن أدرك أن انتظاري سيطول، جلت بنظري سريعًا عبر القاعة التي تحتوي على عدد من المقاعد المحدودة على جانب من القاعة، وعلى الجانب الآخر آلة لتفتيش الحقائب كتلك الموجودة في المطارات. كانت كافة المقاعد في قاعة الانتظار مشغولة ويجلس عليها المسافرون، باستثناء القلة القليلة في القاعة، وكنت أحدهم. انتظرت طويلًا إلى أن تيسر لي مقعد خلا، فسرت باتجاهه

مسرعًا لأشغله قبل أن يلاحظه غيري، وبالفعل فقد جلست بجانب عائلة مكسيكية مكونة من ثلاثة أشخاص؛ زوج وزوجة كلاهما في خريف العمر مع ابنتهما العشرينية. ما إن جلست حتى بادرت السيدة للحديث معي باللغة الإنجليزية، وسألتني: ماذا ننتظر.

أجبتها بهدوء أننا في انتظار الحافلة.

قالت: أتتحدث العربية؟

أجبتها: بالتأكيد نعم.

وهنا تدخل الزوج وقال لي: هل يمكنك أن تسأل الضابط متى سنستقل الحافلة.

أجبت: بالتأكيد.

توجهت إلى أحد الضباط في القاعة وسألته عن الحافلة ومتى سيأذنون لنا باستقلالها ومتابعة الرحلة.

فقال لي بغضون نصف ساعة من الآن. وشرح لي بدوره أنهم ينتظرون الإشارة من جسر اليهود.

شكرته وعدت إلى مقعدي وقلت لهم إننا سنتحرك بعد ثلاثين دقيقة من الآن، فشعرت بخيبة أملهم ومللهم من الانتظار لأننا في تلك اللحظة كان قد مر على مكوثنا في القاعة ما يزيد على التسعين دقيقة.

بعد مرور خمس عشرة دقيقة جاء الفرج وأعلن أحد أفراد الأمن وصول الحافلة.

تحرك الجميع باتجاهها، ووضع كل منا حقائبه في المكان المخصص لذلك في أسفل الحافلة، وصعدنا إليها واتخذ كل منا مكانًا له.

صعد جميع الركاب وتحركنا باتجاه النهر لنعبر نهر الأردن باتجاه نقطة التفتيش الإسرائيلية. كان في مخيلتي جسر الخشب المنصوب فوق نهر الأردن، الذي شاهدته وعبرته مرارًا في زياراتي السابقة للضفة الغربية مع أمي في سنوات السبعينيات من القرن الماضي. عبر شريط من الذكريات التي راودتني الآن، تذكرت والدتي ومعاناة السفر إلى فلسطين وساعات الانتظار الطويلة، التفتيش المهين من قبل سلطات الاحتلال بتجريدنا من ملابسنا، تذكرت الإهانة بحق الرجال الفلسطينيين الذين يلبسون الحطة والعقال، وكيف كان الجنود الإسرائيليين يجبرونهم على خلع العقل ووضعها بنفس السلة التي يضعون بها النعال لإرسالها للتفتيش، ومدى شعورهم بالإهانة. تذكرت سنوات السبعينيات عندما كنت أزور الضفة بمعية والدتي وهذه الإجراءات من التفتيش التي كنا نخضع لها.

صحوت على صوت الجندي الأردني الذي صعد إلى الحافلة في آخر نقطة للتفتيش قبل عبور النهر حيث يرفرف العلم الأردني، وفي مقابله من الجهة الأخرى علم دولة الاحتلال بالأزرق والأبيض.

كانت الحافلة تقل خمسة عشر راكبًا غالبيتهم من جنسيات مختلفة، عائلة فرنسية، وأخرى مكسيكية، وبعض الجنسيات الأخرى التي لم أتبين أيًّا منها، لكني كنت الوحيد العربي على متن هذه الحافلة التي تقلنا بين الجسرين.

عبرنا نهر الأردن فكان أول ما لفت نظري ذلك الجسر الإسمنتي العريض الذي بُني مكان الجسر القديم الخشبي الذي أتذكره جيدًا، ولا يزال صوت قرقعة الخشب يطنُّ في أذني عند عبور الحافلة عليه. أيقنت لحظتها كمَّ السنين التي مرت وأنا بعيد عن العبور إلى فلسطين. عبرنا الجسر باتجاه مبنى الحدود على الضفة الأخرى من النهر، وعندما وصلت الحافلة التي تقلنا إلى نقطة التفتيش، وهو مبنى صغير كمباني المطارات، لم يفتح السائق الأبواب إلا بعد أن تم إنزال كافة الحقائب من الحافلة، فأعطى الأمر لنا بالنزول. توجه كل من الركاب إلى حقائبهم وتوجهنا إلى داخل المبنى.

بدأت إجراءات التفتيش، تقدمت إلى الشباك وأعطيت جواز سفري الأجنبي للموظفة، فوضعَتْ لاصقا أبيض على الجواز من الخلف وأعطتني إياه، وقاموا بإجراءات التفتيش الشخصية وتفتيش الحقائب، وتوجهتُ لشباك الجوازات وأعطيته جواز السفر. بادرني الموظف بوابل من الأسئلة عن اسمي وعمري وعملي ومكان ولادتي التي كانت مذكورة في جواز السفر، وهي مدينة القدس التي لفتت انتباهه، كما استفسر عن الهدف من الزيارة، وأين ستكون وجهتي في فلسطين، وما اسم أمي وأبي وجدي وغيرها من الأسئلة الكثيرة.

بعد هذا الكم الهائل من الأسئلة طلب مني التوجه إلى المقاعد والانتظار ريثما يتم الكشف على جواز السفر والتحقق من شخصيتي.

جلست في المقاعد الجانبية حيث جلس العديد من الأشخاص من ذكور وإناث ينحدرون من دول عدة وبأعمار مختلفة، فيهم من هم في خريف العمر، وفيهم من هم في مقتبله. كان هناك عدد لا يستهان به من حملة الجوازات الأمريكية، لكنهم من أصول مختلفة، منهم الآسيوي والإفريقي والأمريكي والعربي وغيرهم، كما كان هناك بعض الأتراك. كنت قد جلست على أول مقعد كان في مواجهتي.

ما إن جلست حتى بادرني الشاب الجالس بجانبي بالسؤال عن سبب مجيئي إلى فلسطين، فقلت له جئت زائرا إلى وطني، فقال لي: سيطول انتظارك، أنا جالس على هذه المقاعد منذ عدة ساعات هنا.

قلت في نفسي بدلًا من أن يشجعني يريد أن يحبطني، لكن لا بأس كنت قد بدأت ويجب أن أستمر للنهاية. إن عبرت فسيكون ذلك من دواعي سروري، وإن رجعت فذاك قدري وسأتعامل مع الموقف بواقعية. خطر في ذهني أن أبي حاول العبور في منتصف تسعينيات القرن الماضي عن طريق تصريح من قبل سلطات الاحتلال تقدم به عمي، ووافقوا على إصدار التصريح له بالزيارة، وكنا سعداء لذلك وأوصلناه إلى الجسر وقفلنا عائدين إلى عمان. كان قد تجاوز نقطة التفتيش الأردنية وتوجه للنقطة الإسرائيلية. تركوه ينتظر إلى نهاية الدوام الرسمي ولم يسمحوا له بالعبور كونه من المبعدين على الرغم من مرور أكثر من خمسة وعشرين عامًا على إبعاده من القدس. أرجعوه إلى عمان، وأذكر كيف عاد إلى البيت مكفهر الوجه، وبدت عليه آثار التعب من ذاك اليوم المضني وخيبة

الأمل في الوقت نفسه، لكنه وكقدر المناضلين تعوّد على ما هو أسوأ من ذلك، فقد مر عليه في حياته النضالية الكثير من الأحداث والمواقف التي لم يكن فيها على مقاعد المشاهدين، بل كان في قلب العمل النضالي سواء في الأردن أو فلسطين إبان الاحتلال.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة والنصف مساءً، وكان قد مضى على وجودي ما يقارب الساعة منذ وصولي إلى القاعة. جاء أحد الموظفين وناداني وسألني عدة أسئلة أخرى تتعلق، وبعد أن أجبته عنها طلب مني العودة إلى المقعد، وبعد برهة من الزمن لم تتجاوز عشرة دقائق إذا بموظف آخر يناديني ويسلمني الجواز وفيزا الزيارة، وهي ورقة خارجية.

أخذت منه الجواز وتناولت حقائبي وتوجهت للخارج مباشرة باتجاه الحافلات التي ستنقلنا إلى الاستراحة، وهي نقطة التفتيش الحدودية الفلسطينية التي تقع داخل مدينة أريحا.

عندما توجهت للمنطقة المخصصة للحافلات كانت زوجتي بانتظاري هناك. فتوجهنا معًا وركبنا الحافلة مرة أخرى باتجاه مدينة أريحا. كانت الفرحة لا تسعني، وبالرغم من قرب المسافة ما بين نقطتي التفتيش الإسرائيلية والفلسطينية في الاستراحة، إلا أني شعرت بأنها بعيدة جدًا. كانت زوجتي جالسة بجانبي وتضحك على ردة فعلي واستعجالي.

ما إن وصلت الحافلة إلى مبنى الاستراحة ودخلنا من البوابة الرئيسية حتى دارت بنا الحافلة في ساحة يتوسطها مبنى مقام من دور واحد، وهو

مـا يشـير إلـى أنـه النقطـة الحدوديـة لـدخول أراضـي السـلطة الوطنيـة الفلسطينية. هممت بالوقوف استعدادًا للنزول، واستغرب بعض الركاب استعجالي، فبادرت زوجتي بالتحدث مع بعض الركاب وقالت لهم أفسحوا له الطريق فهو لم يطأ أرض فلسطين منذ سبع وثلاثين سنة، فهنأني الجميع وتمنوا لي إقامة طيبة في ربوع الوطن.

وكما هي الحال في نقطة التفتيش الإسرائيلية، انتظرنا ريثما يُفرغ العمال الحافلة من الحقائب حتى فتح السائق الباب وأذن لنا في النزول إلى أرض مدينة أريحا التي سُمّيت اتفاقية السلام باسمها (غزة – أريحا أولًا) على أمل أن نرى ثانيًا!

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءً، غابت الشمس لكن لم يحل الظلام بعد، كان الطقس حارًّا، لكنه أكثر لطفا من أجواء الخليج العربي الحارّة جدًّا. ولشدة فرحتي بالعودة للوطن لم أشعر بالحر.

وصلنا أنا وزوجتي إلى منطقة السلطة الوطنية الفلسطينية، وهي ما يطلق عليها «الاستراحة»، وهي بمثابة الحدود الفلسطينية في أطراف مدينة أريحا. كان في استقبالنا عدد من الأقارب من دون ذكر الأسماء حتى لا يسقط مني سهوًا ذكر أحدهم عن عدم قصد، وكلهم أُعزهم وأُكن لهم جزيل الاحترام والتقدير. حين خرجنا من البوابة الرئيسية بعد استلام الحقائب، إذا بفلنتينا أخت زوجتي تفاجئني بالكوفية الفلسطينية التي لفَّتها حول رقبتي بلونيها الأبيض والأسود مرحّبة بي في فلسطين. شعرت حينها بالزهو والفرح لأنني على أرض فلسطين. وتذكرت في ذلك الحين

أبي عندما حدثني عن شعوره حين رجع ليستقر في فلسطين عام 1998، بعد أن ربح القضية التي رفعها في المحاكم الإسرائيلية لإلغاء قرار الإبعاد بعد مرور ثلاثين عامًا على صدوره. عاد والدي مع والدتي إلى أرض الوطن ليسكنا مدينة القدس من جديد، واسترجعا هويتهما المقدسية وعاشا في القدس إلى أن وافته المنية بعدها بسنتين، وأمي بعدها بثماني سنوات. وكانت أختي ميسون قد نجحت باسترجاع هويتها المقدسية لأنها كانت من الذين تم إحصاؤهم في القدس بعد الاحتلال، وما زالت بحوزتها إلى الآن. أما أختي الكبرى عفاف، فعندما جاء الاحتلال عام 1967 لم تكن في القدس آنذاك، بل كانت تعمل في الكويت وتدرس الحقوق بذات الوقت بالانتساب إلى جامعة بيروت العربية، لهذا لم تكن من الأشخاص الذين طالهم الإحصاء بعد الاحتلال، ولا تملك أي سجل لدى سلطات الاحتلال، مع العلم بأنها تخرجت في المدرسة المأمونية في القدس في عام مولدي عام 1966، وهي ذات ستة عشر ربيعًا. أما أخي مازن فقد غادر القدس بعد الاحتلال بعدة أشهر لأنه كان مطلوبًا لسلطات الاحتلال، نتيجة نشاطه السياسي الطلابي ضد الاحتلال من خلال صفوف الحزب الشيوعي الأردني، فغادر ليكمل دراسته الثانوية العامة في عامه الأخير في عمّان، ثم غادر إلى الاتحاد السوفييتي لدراسة الطب. وكان في ما بعد من أهم قياديي الحزب الشيوعي الأردني وأمين عام حزب الشغيلة الشيوعي الأردني، بالإضافة إلا أنه مفكر وكاتب سياسي وله العديد من الكتب في السياسة والاقتصاد والعديد من المقالات

والدراسات المنشورة في الصحافة العربية والعالمية. حاول أبي أن يطالب بهوياتنا المقدسية أنا وأخي لكن رفضتها سلطات الاحتلال وبشدة.

كان حلم أبي أن يعود يومًا إلى الطيبة مسقط رأسه، وأن يعود إلى القدس ويسكنها ليسترجع هويته المقدسية. تحققت هذه الأمنية مع نهاية شهر تموز عام 1998، واستقبله الأهل في الطيبة استقبالًا مهيبًا يليق بالمناضلين من أمثاله الذين لم يتوقفوا عن النضال في سبيل حرية فلسطين، وبذلوا الغالي والنفيس متحملين عبء الغربة والابتعاد القسري عن الوطن، ولم يهادنوا يومًا أو يستكينوا، بل كانت عزيمتهم صلبة وكانوا متفائلين بأن المستقبل للشعوب وللحرية، وبأن الاحتلال زائل طال الزمان أو قصر. كان والدي متعلمًا ومثقفًا واسع الاطلاع وقارئا نهما، خلّف لنا مكتبة فيها آلاف الكتب، وعلَّمنا منذ نعومة أظفارنا وزرع بنا حب القراءة والثقافة وحب الوطن والنضال والمشاركة في الهم العام، لكي يكون لكل منا بصمة في الحياة التي نمر بها من الطفولة إلى الكهولة. فأخي مازن كما ذكرت طبيب يكتب في السياسة وله العديد من المؤلفات، وأختي عفاف كاتبة صحفية وتكتب القصة القصيرة، وميسون بالإضافة لكونها طبيبة كاتبة مسرحية متميزة ولها عشرات المسرحيات المطبوعة.

تركنا الاستراحة وصعدنا إلى السيارات وبدأنا نسير باتجاه الطيبة التي ترتفع 850 مترًا فوق سطح البحر، وتقع شمال شرق مدينة رام الله وتبعد عنها مسافة 12 كيلو مترًا، كما تقع إلى الشمال الغربي من مدينة أريحا أقدم مدن التاريخ وتبعد عنها مسافة 23 كيلومترًا.

بالنسبة لي لم يكن هناك تغير يذكر في الطريق من أريحا إلى الطيبة سوى في درجات الحرارة، فالطريق كان في صعود مستمر، كلما صعدت بنا السيارة عبر الطريق التي تسمى «المعرجات» لكثرة الزوايا الحادة لها تناقصت درجة الحرارة. أريحا مدينة حارة نسبيًّا فهي تقع على مستوى 258 مترًا تحت سطح البحر في وادي القلط في واحة غور الأردن الذي يعتبر جغرافيًّا أخفض منطقة في العالم.

عند نهاية المعرجات كنا قد ارتفعنا بمعدل يزيد على 700متر تقريبًا أو أكثر بقليل عن مستوى سطح البحر، ووصلنا إلى مشارف الطيبة بمحاذاة مستوطنة ريمونيم المطلّة على سفح جبل في مقابل الطيبة، فأيقنت مدى مكر اليهود في سيطرتهم على المناطق المرتفعة وسفوح الجبال، وهي قضية أمنية بالدرجة الأولى وعلى درجة عالية من الأهمية بالنسبة لهم. على الرغم من أن العديد من المستوطنات تقع ضمن مناطق السلطة أو محاذية لها. إن مسألة التوسع ببناء المستوطنات داخل حدود السلطة ومصادرة العديد من الأراضي هي من المسائل الهامة لدى دولة الاحتلال، فهي تهدف إلى تقليل رقعة الأراضي الواقعة داخل حدود السلطة الوطنية الفلسطينية من جهة، ومن جهة أخرى إلى مضايقة الفلسطينيين في حياتهم اليومية بغية حثّهم على مغادرة البلاد باتجاه الغربة، وهذه إحدى سياسات دولة الاحتلال لتفريغ الأرض.

عندما دخلنا الطيبة كانت الساعة بحدود الثامنة مساءً، قمت بجولة سريعة في أرجاء الطيبة لأتبين ملامحها بشكل أولي، وما الذي تغير

بالنسبة لي بشكل عام، سواء على صعيد التوسع العمراني، أو أيٍّ من مظاهر التطور العامة. بداية، وعلى الرغم من أن الليل كان في هزيعه الأول، إلا أن البلدة كانت فارغة تمامًا، لم نر أحدًا في الشوارع لنطرح عليه السلام، المحلات التجارية المحدودة في البلدة كانت مغلقة على الرغم من أن الشوارع مضاءة بشكل كامل، إلا أن الانطباع الذي يتبادر إلى الذهن بأنها ربما الثانية بعد منتصف الليل، مما أثار استغرابي. درنا حول المنارة، وهي الدوار على الطريق العام في الحارة الشمالية من البلدة، وتعرف بـ«شامة»، ومن ثم توجهنا إلى دار عمي أنطون للقاء ابنة عمي ماري التي كانت بانتظارنا هناك.

وطأت قدماي أرض الطيبة وترجلت من السيارة بعد هذا الكم الهائل من السنوات، دخلت دار عمي التي تعودت أن أزورها وأنا صغير، وهو مبنى مكون من طابق تسوية وطابق أرضي وسط بستان مساحته تزيد بأكثر من الضعفين على مساحة البناء المقام والمتوسط في منتصفه. بدا البستان في غاية الأناقة مليئا بالأشجار والورد المتعدد، فقد كان عمي أنطون رحمه الله، الذي وافته المنية عام 2012 عن عمر ناهز 84 عامًا، يقوم بالاهتمام به بشكل دائم وكان شغله الشاغل. من عرف عمي عرف فيه حب الأرض والزرع والأشجار، حبه لأرضه التي صمد فيها ولم يغادرها البتة. فقد وافته المنية في ظهر أحد الأيام من شهر آذار وهو واقف بين ورده وأشجاره. أحب بستانه كثيرًا ومات واقفًا كالطود بين أشجاره وورده ليعلمنا درسًا بأن حب الأرض والانتماء إلى هذا الثرى الغالي،

الثرى الفلسطيني، أرض الآباء والجدود، هو الحب الحقيقي للوطن الغالي الذي لا يستبدل بمال الدنيا. كانت هذه المرة الأولى التي أزور فيها بيت عمي بعد وفاته، فشعرت بمرارة وخسارة حقيقيتين، فقد كان عمي بالنسبة لنا أبا ثانيا عطوفا، روحه مرحة، محبًّا للحياة وللكبار وللأطفال الذين عشقوه دائمًا.

استقر بي المطاف في بيت عمي بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية، لكن يومنا لم ينته هنا، بل كان الليل في أوله، وفي هزيعه الأول رغم الهدوء الذي يحيط بالبلدة، وكانت هذه هي الليلة الأولى التي سأقضيها تحت سماء الوطن، وكانت مميزة لأن برنامجنا حافل، فقد تزامن وصولنا إلى الطيبة في يوم اجتمع فيه كافة الأهل والأحبة في حفلٍ لسهرة العريس، وكان العريس أحد أبناء العمومة، وبالطبع كنا وزوجتي من المدعوين، فبعد تناول طعام العشاء الذي أعدته ابنة عمي توجهنا جميعًا إلى الحفل في منتزه الطيبة للقاء الأهل والمشاركة، فبحسب التقاليد عندنا كما في باقي فلسطين، يجب أن يُزَفَّ العريس قبل عرسه ببضعة أيام وسط احتفال يدعو إليه أهل العريس كافة سكان البلدة، في حين كانت العادات القروية القديمة أن يُحتفى بالعريس لسبع ليالٍ متواصلة قبل العرس، إذ كانت العلاقات الاجتماعية بين الناس قوية وأكثر ترابطا مما هي عليه الآن، وذلك قد يعود –ربما– لبساطة الحياة ويسرها في الريف في تلك الأيام، وبساطة الناس على الأغلب في علاقاتها الاجتماعية بشكل عام، تلك العادات تقلصت مع الزمن بدافع الوضع الاقتصادي ربما، والاحتلال

البغيض، وتغيُّر نمط الحياة وتطورها. فمع ظهور التلفاز في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات من القرن المنصرم، بدأت تتقلص -رويدًا رويدًا- العلاقات الاجتماعية والتواصل المباشر والمسامرة الليلية بين أفراد البلدة أو حتى الأقارب منهم، وأصبح الناس يجتمعون داخل البيوت التي تمكَّن أهلها من شراء هذا الصندوق الخشبي الذي يعج بالصوت والصورة وما اصطُلح على تسميته «التلفاز»، واستمر الوضع كذلك خلال السنوات التالية. أما في عصرنا الحالي فتنوعت وسائل التواصل غير المباشر عن طريق الشبكة المعلوماتية ووسائل التواصل الاجتماعي وغيرها، وبالتالي ابتدأت الحياة تأخذ منحى آخر في الابتعاد الكلي عن الحياة الاجتماعية المباشرة بين البشر، وإن استمرت على ذلك المنوال فستختفي كليًّا مع مرور الوقت.

عندما وصلنا إلى المنتزه، وهو مكان الحفل، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً. كان لقائي بجميع أفراد العائلة لقاءًا مميزًا واحتفوا بي جميعًا مرحبين مهللين، مما كان له أثر طيب في نفسي لن أنساه أبدًا. تخلل الحفل الأغاني والأهازيج الشعبية «الصحجة»، وهي أن يتجمع الرجال في حلقة مستديرة حول العريس ويهزجون بالأغاني الشعبية المحفوظة في الذاكرة الشعبية والمتوارثة ما بين الأجيال المختلفة، فترى الشباب والمسنين أو من هم في خريف العمر يقفون متراصّين ويغني أحد الرجال ويرد الباقون عليه. ومن ينسى بيتًا يكمله الآخر، وهكذا دواليك. ثم يأتي الشباب في نهاية تلك الوصلة ويزفّون العريس ويحلقون له «لا

اعـرف علـى وجـه الدقـة كيـف كانـت في العـادات القديمـة، ربمـا كـانوا يحلقـون للعـريس في الواقـع»، أمـا الآن فيكتفـي الشـباب بـرش معجـون الحلاقة السـائل ويلطّخـون بـه العـريس أينمـا اتفـق، ويلطخونـه بمـا يتـوفر لـديهم مـن الأطعمـة ومـن السـوائل وذلـك كنـوع مـن الترفيـه. وهـذه مـن العادات المستحدثة والمعدلة على حلقة العريس.

هنا يجب أن أضيف أنه على الرغم من التعب وعناء السفر ومواصلة الليل بالنهار، لا يسعني إلا أن أعترف بأنها كانت ليلة مميزة، إذ إني سعدت بحضور هذا الحفل والاستمتاع بالأهازيج الشعبية التي لـم أسـمعها منذ فترة طويلة، حاولت الوقوف مع الرجال والغناء معهم، إلا أنـه كـان أمـرًا مضنيًا لي لأني لم أستطع أن أفهم وأميز ما يقولون بالتحديد، اعرف بعضًـا بالتأكيد من أبيات الصحجة، لكن الـذي أعرفـه كـان ضـئيلًا جـدًّا. فجميـع سكان البلدة يحفظونه ويرددونه باستمرار وهو من المخزون المحفـور في الذاكرة الشعبية. مكثنـا في السـهرة حتـى الثانيـة صـباحًا ولـم أشـعر بمـرور الوقت.

عند وصولي إلى الطيبة، على الرغم من حفاوة الاستقبال الذي غمرني به أفـراد عـائلتي وأقـاربي جميعًـا كمـا ذكـرت سـابقًا، إلا أن شـعوري هـذه المرة كـان مختلفًـا عنـه في المـرات السـابقة. فقـد اختطـف المـوت جميـع أعمامي وعماتي وأخوالي على الأغلب، والكثيـرين مـن نفـس الجيـل مـن الأقرباء والأنسباء والمعـارف، فقـد بـدت البلـدة خاويـة تمامًـا مـن الكبـار وذلك جلي للنظر للقاصي والداني، وهي ملاحظة أولية تبادرت إلى ذهني

في الوهلة الأولى وفي الأيام الأولى من خلال تجوالي في حارات البلدة القديمة والمرممة حديثًا.

• الجولة الأولى: الطيبة

استيقظت في صباح اليوم التالي في نشاط كامل، نظرت من الشباك، ورأيت شجر الزيتون أمام نظري يصطف في صفوف غاية في الروعة والتنسيق. كنت أنظر في الأفق من دون أن أرى نهاية لتلك الصفوف المتراصة والمزروعة بعناية وبمسافات متساوية بين الشجرة والأخرى، ففتحت الشباك، داعب وجهي نسيم الصباح العليل وتنفست لأول مرة منذ سنوات طويلة الهواء النقي، كانت زوجتي تقف بجواري، فبادرت بسؤالي:

«ما رأيك بجمال بلادنا؟».

فقلت لها بالفعل إني مندهش لهذا المنظر الخلاب وأريد الخروج في الحال، والتمتع بالمشي في ظل هذه الأشجار الباسقة التي عمرها أقدم بكثير من الاستعمارات المختلفة التي احتلت فلسطين منذ قديم الزمان.

قالت: رويدًا رويدًا، دعنا نحتسِ قهوة الصباح ونتناول طعام الإفطار، بعدها سنبدأ يومنا في جولة صباحية لتفقد معالم المكان، وتتعرف على البلدة بشوارعها وأزقتها وحواكيرها.

بعد تناول طعام الإفطار اصطحبني عدد من الاقارب في جولة سريعة للتعرف على معالم البلدة القديمة التي رأيتها ليلا، فكنت متشوقًا لكي أراها كيف تبدو في وضح النهار.

طلبت منهم ما إن خرجنا من بيت عمي مكان إقامتي أن نبدأ جولتنا بالذهاب إلى البلدة القديمة.

فقالوا لي: على الرحب والسعة أنت تقرر ونحن ننفذ.

بالفعل، فقد أخذوني لنبدأ جولتنا في التسكع في حواري البلدة القديمة التي تم مؤخرًا ترميم جميع مبانيها وشوارعها وأدراجها من الخارج، بالتعاون مع بعض المؤسسات الأجنبية للمحافظة على هذا التراث. المباني تبدو جميلة المظهر من الخارج نتيجة الترميم الحديث لواجهات الحجر القديم التي بنيت منه، لكنها للأسف خالية تمامًا في معظمها من السكان، فقد هجرها أهلها عبر الزمن. البعض قد غيبه الموت، والبعض الآخر ذهب طوعًا أو مرغمًا إلى الغربة على الأرجح، والبعض الآخر شيد بيوتًا حديثة الطابع في مناطق أخرى من البلدة وهجر البلدة القديمة التي كان يقطن فيها آباؤه وأجداده على الأغلب. الأسباب قد تكون كثيرة ومختلفة، لكن الحقيقة هي واحدة ألا وهي خلو البلدة القديمة من السكان، فالعائلات التي ما زالت تقطن فيها قد لا تتعدى أصابع اليد الواحدة أو أكثر من ذلك بقليل.

ذهبت إلى بيت جدي في البلدة القديمة، وهو في منطقة مرتفعة ويتكون من طابقين، طابق تسوية أو ما يسمى «قاع البيت»، وكانوا يستخدمونه

للدواب وله مدخل مستقل، أما الطابق الأرضي فمكون من غرفة نوم ومطبخ. أتذكر أني زرت جدي وجدتي في هذا البيت عندما كنت صغيرًا في نهاية السبعينيات من القرن الماضي. ما زلت أذكر أن البلدة القديمة في حينها كان يسكنها العديد من الناس أكثرهم بالطبع كانوا من المسنين.

صعدت إلى سطح البيت، كان الجو صافيًا في ذاك اليوم وصوبت نظري إلى الشمال الغربي، كان منظر البحر الميت بديعًا من هذا العلو.

شردت بذهني بعيدًا حينما تذكرت ما حدثني به والدي عن هذا البيت الذي وُلد فيه هو وإخوته، وعن طبيعة حياتهم البسيطة آنذاك، عن المدرسة وعن المعلم سعيد الذي هو من إحدى المدن الساحلية في فلسطين، وكان يدرسهم مادة اللغة العربية وقواعدها.

تذكرت كيف كان ابي متمكنًا جدًّا في اللغة العربية، ذهنه يقظًا، بل كان يتمتع بأذن حساسة جدًّا للغة العربية ولقواعد اللغة تحديدًا التي كان يتقنها بشكل ممتاز، إذ كان يميز أي خطأ لغوي بسهولة ويسر.

بيت جدي

تذكرت كم المرات التي دار بيننا حديث فيها حول اللغة العربية عندما كنت في المدرسة.

كان أبي يقول لي باستمرار إنه من الأخطاء الشائعة عند الناس الظن بأن قواعد اللغة العربية صعبة، فهي كمادة الرياضيات تتبع قواعد معينة،

إن فكرتَ فيها وطبَّقتَها فستستطيع إعراب أي جملة بسهولة ويسر، فكلمة قواعد تأتي من محدِّدات معلومة سواء كانت في اللغة أو العلوم، إن فهمتها وأتقنتَها استطعت أن تحل المعضلات بسهولة ويسر. إنها مسألة تعلم، فهم، إدراك وتفكير.

لقد أكمل والدي دراسته الابتدائية في بلدته الطيبة التي أحبها حتى آخر يوم في حياته. كان تواقًا للعلم، مما اضطر جدي إلى أن يبيع قطعة من الأرض التي ورثها عن أبيه ليكمل والدي تعليمه، فانتقلوا إلى مدينة القدس، ليلتحق والدي بكلية التراسانطة وحاز على المترك البريطاني؛ وهي شهادة الدراسة الثانوية العامة الإنجليزية، وتخرج عام 1944. هذه الشهادة لغاية هذه اللحظة من الأهمية بمكان أنه يتقدم لاجتيازها العديد من الطلبة سنويًّا بغية الالتحاق بالجامعات، خاصة الأجنبية منها، وهي تعرف باسم GCE أو IGCSE بلغة هذه الأيام، فابني يزن أحد الحاصلين على هذه الشهادة بعد جده بـ74 عامًا.

بعد أن أتم دراسته المدرسية، حاول الالتحاق بالجامعة اليسوعية في بيروت ليكمل دراسته، لكن لم يتسن له ذلك، والسبب أن جدتي قد أخفت عنه الجواب الذي تسلمته بالنيابة عنه من الجامعة والذي يفيد بموافقة الجامعة على قبوله؛ خوفًا على ضعف النظر الذي أصاب عينيه خلال دراسته المدرسية وعدم توفر الكهرباء في حينها، فقد كان الطلاب يذاكرون دروسهم على ضوء السراج، مما اضطر والدي لاستخدام النظارات الطبية. ومن الجدير بالذكر أن جدتي كانت تجيد القراءة

والكتابة، وهذا أمر نادر في ذلك الوقت. أما حقيقة أن جدتي أخفت عنه كتاب موافقة الجامعة للالتحاق بها فقد اكتشفه والدي لكن بعد فوات الأوان.

كان والدي يتقن اللغات الإنجليزية والفرنسية بطلاقة إلى جانب اللغة العربية، مما أفاده كثيرًا في حياته، فقد كان يقرأ الكتب في لغاتها الأصلية. فكانت معرفته باللغة الإنجليزية بطلاقة قد أهلته ليعمل مدرسًا للغة الإنجليزية ويمتهن مهنة التعليم. وبهذا عندما أنهى دراسته الثانوية وملّ الانتظار ظنًّا منه بأن الجامعة لم تقبله، قرر الالتحاق بالبطريركية اللاتينية وأصبح مدرّسًا للغة الإنجليزية، وعُيّن في مدينة الرملة، وبعدها تنقل إلى عدة مدن منها عمّان والفحيص في خمسينيات القرن الماضي.

كان والدي شابًّا في بداية حياته المهنية، وشهد سنة النكبة 1948 وضياع جزء من فلسطين، فتفتح حسه الوطني كبقية أبناء جيله، وانضمَّ للنضال في صفوف عصبة التحرر الوطني الفلسطيني التي تحولت في ربيع عام 1951 إلى الحزب الشيوعي الأردني. فإلى جانب مهنة التعليم انهمك والدي في العمل السياسي مناضلًا في صفوف الحزب، وشارك في نضالات الحزب ضد حلف بغداد في الخمسينيات من القرن الماضي، واعتُقل وأُودع في سجن الجفر الصحراوي مع ثلة من رفاقه المناضلين في صفوف الحزب ومنهم: الدكتور يعقوب زيادين وفائق وراد وعيسى مدانات وروفائيل الزيادين وإميل عواد وغيرهم المئات من المناضلين

الذين فارق معظمهم الحياة، وقد تركوا بصمة حية في التاريخ النضالي الفلسطيني والأردني. وهذا حديث ذو شجون لا تسعه دفة كتاب واحد.

عندما أكملنا جولتنا الصباحية في البلدة القديمة، اقترحوا عليّ أن نقوم بزيارة إلى مقبرة البلدة. هذه الزيارة تعتبر جزءا من العادات، خاصة للمغتربين الذين يأتون لزيارة بلدتهم وأهلهم، خاصة من النساء أو من كبار السن عمومًا، فزيارة الأهل والأحبة الذين قضوا نحبهم في غيابهم من التقاليد الراسخة في البلدة على مر الزمن. قمنا بزيارة قبور الكثيرين من الأعمام والعمّات والجدود الذين عرفتهم، وكان هناك الكثيرون ممن قضوا نحبهم منذ عشرات السنين. كنت أقرأ الشواهد على القبور فمنهم من عرفتهم جيدًا من الرجال والنساء، ومنهم من سمعت عنهم سواء من الأقارب أو المعارف. تذكرت الكثيرين ممن عرفتهم في زيارتي الأخيرة في صباي، ولم أجد أيًّا منهم على قيد الحياة، تذكرت أعمامي جميعًا في طيبتهم وكرمهم وحسن استقبالهم لنا عندما كنا نأتي لزيارتهم من الأردن، وتذكرت عمي «أبو ناظم» والد زوجتي الذي جاء لزيارتنا في دبي عدة مرات قبل أن يتوفاه الله، ولم ينل حظه الكافي من التعليم لكنه يتمتع بذكاء فطري. كان يروي لي القصص والحكايات عن البلدة وأهلها وطيبتهم. فكم سهرت الليالي وإياه وهو يحدثني عن شبابه! عن مكافحتهم في الحياة والظروف الصعبة التي عايشوها، عن النكبة وكيف هربوا إلى المغر القريبة من البلدة عندما احتَلَّت دولة الاحتلال الضفة الغربية، وكيف عادوا إلى بيوتهم ورفضوا المغادرة على غرار ما حدث لتهجير

فلسطينيي الـ48 الذين غادروا ولم يستطيعوا العودة إلى ديارهم مجددًا. وكيف استطاعوا أن يتداركوا ذلك، وبقوا صامدين متحدّين، والاحتلال لم يستطع أن يقلعهم من جذورهم فاختاروا الصمود والبقاء.

تقع المقبرة على تلة مرتفعة في طرف البلدة، وفي الوقت نفسه بجانبها كنيسة تاريخية وأثرية هي كنيسة الخضر التي يعود تاريخها إلى العصر الروماني. هذه الكنيسة من الآثار المهمة والقديمة التي يجب زيارتها والتعرف على معالمها وتاريخها. فتاريخ هذه البلدة العريقة كان قد شدني للبحث في تاريخها القديم فقمت بمراجعة ما كتبه والدي المرحوم سليمان الحنا عن بلده الطيبة في مقال كان قد نشره في بداية التسعينيات. وللحقيقة وبكل فخر، فإن والدي كان قد أبدع في كتابة المقال، فاختزل هذا التاريخ العريق بثماني صفحات وتطرق لتاريخ البلدة وتسمياتها المختلفة عبر التاريخ، لعوائلها، آثارها وتطورها مستخدمًا ما يزيد على تسعة مراجع تاريخية مما كُتِب عنها في كتب التاريخ، منها: «معجم البلدان» لياقوت الحموي، و«بلادنا فلسطين» لمصطفى مراد الدباغ، و«الطيبة عبر العصور» من تأليف عمي أندراوس الحنا والأستاذ نعيم طايع، وغيرها من كتب التاريخ التي سنأتي على ذكرها لاحقًا.

ونظرًا لاهمية هذا التاريخ، وللموقع الاستراتيجي والحيوي للطيبة، سأتناول الحديث عن تاريخها في الصفحات القادمة، إذ إني قمت بمراجعة العديد من الكتب والمراجع وما كتب عنها من قبل الكثيرين. وتقتضي الأمانة أن أنقل للقارئ تاريخ هذه البلدة عبر طيات هذا الكتاب، فقمت

بالاعتماد بشكل رئيسي على ما كتبه والدي عن تاريخها بتصرف، نظرًا لفارق الزمن، فأضفت بعض المعلومات وتوسعت في بعض الموضوعات لشرح المقصود. لا أدعي لنفسي بأني خير من تناول الكتابة عنها، فمن كتب عنها قبلي كان قد أبدع في ذلك بالتأكيد، خاصة من الجيل الذي عاش وترعرع بها من أمثال والدي وغيره كثيرون. لهذا نقلت ما كُتب عن تاريخها، واجتهدت في كتابتي عن حاضرها في ظل سنوات الاحتلال البغيض، وما حل بها من الويلات والجراح التي حلت بفلسطين كما رصدته عيناي.

- الطيبة تاريخها وحاضرها.. عبق الماضي وزخم الحاضر

تحدثنا كتب التاريخ بأن بلدة الطيبة هي إحدى قرى بني سالم الأربعة (أنا هنا في هذه الصفحات سأقتبس مما كتبه والدي المناضل سليمان حنا عن تاريخ الطيبة، موقعها، مؤسساتها، مدارسها، وأماكنها التاريخية، وهي محاضرة ألقاها في مقر رابطة أهالي الطيبة بتاريخ 25/ 3/ 1998)، والقرى هي الطيبة ودير جرير ورمون وكفر مالك. وبنو سالم هم بطن من جذام من قحطان. تتميز الطيبة بموقعها الجغرافي المميز والمرتفع، فهي تقع على ارتفاع 950 مترا عن سطح البحر، كما تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة رام الله وتبعد عنها حوالي15 كيلومترًا. يشير المؤرخون إلى أن الطيبة بنيت في زمن الكنعانيين ودعوها «عفرة» بمعنى غزالة. لم يكن هذا الاسم الوحيد الذي اشتهرت به البلدة، فقد عُرفت في العهد الروماني

وسميت (Aphairema)، وأيام غزو الإفرنج لبلادنا ذكروها باسم (Efraon)، وهو الاسم الذي كانت تسمى به أيام زارها المسيح عندما التجأ إليها بعد أن قام أليعازر من بين الأموات كما ورد في إنجيل القديس يوحنا، الإصحاح الحادي عشر عدد 53 و54. منذ ذلك اليوم (أي اليوم الذي قام المسيح أليعازر من بين الأموات)، قرر اليهود أن يقتلوا يسوع، فلم يعد يتجول بينهم جهارًا، بل ذهب إلى مدينة اسمها أفرايم، وتقع على بقعة قريبة من البرية حيث أقام مع تلاميذه. هذا ما ورد في الديانة المسيحية عن ذكر المدينة.

أما الصليبيون فقد تركوا في البلدة آثارًا ما زالت قائمة إلى الآن تشير إلى وجودهم فيها، وذلك من خلال القلعة القديمة الواقعة في أعلى قمة في البلدة، والتي تسمى قلعة البوبرية، وهي قلعة حصينة. كما بنوا كنيسة موقعها يعرف اليوم باسم الخضر، ولا تزال موجودة إلى الآن وتستخدم كنيسةً، وتُقام فيها بعض الشعائر الدينية بين الفينة والأخرى. ويأتيها الكثير من السياح من كل حدب وصوب.

أما مساحة أراضيها، فبعض المصادر تقول بأنها 20,231 دونمًا، وبعضها تقول بأنها 24,000 دونمًا. غرس الزيتون في 1315 دونمًا وهذا هو الزيتون القديم. أما الزيتون الذي كان مزروعًا مع كروم التين، والذي أصبح الآن كله من أشجار الزيتون بعد أن تلاشت كروم التين، فإن عدد الدونمات المزروعة به الآن أكثر بكثير من الـ1315 دونمًا، سابقة الذكر.

يجاور أراضي الطيبة أراضي دير جرير، سلواد، عين يبرود، رمون، وغيرها، وتتوزع كالتالي: من الشمال دير جرير وكفر مالك والمزرعة الشرقية، ومن الجنوب رمون ودير دبوان، ومن الشرق أريحا والعوجا والنونعمية، ومن الغرب سلواد وعين يبرود وبتين.

وكما هو معروف فإن الطيبة مبنية على جبل ارتفاعه 915 مترًا عن سطح البحر، وترتبط بطريق معبَّد مع رام الله، يستمر مع طريق آخر إلى أريحا قام بفتحه أهالي الطيبة تبرعًا سنة 1948 تحت إشراف المرحوم توفيق العرنكي، إذ قاموا بهدمه، فقد كانت ترابيا في بادئ الأمر، وقد استعمل من قبل الجيش والمتطوعين الأردنيين سنة اغتصاب فلسطين، ثم عُبّد في ما بعد ليصبح الآن طريقًا مهما يعبره كثير من المسافرين من الأردن عبر جسر اللنبي أريحا ورام الله وبقية المدن الفلسطينية.

عدد سكانها: كان في الطيبة عام 1922 بحدود 961 نسمة. وفي إحصاء عام 1936 ارتفع عددهم إلى 1125 شخصًا، وفي العام 1945 وصلوا إلى 1330 شخصًا، وفي تعداد 1961 ارتفع العدد إلى 1677 نسمة. أما عددهم الآن فقد لا يتجاوز ألف نسمة، بعد أن تشتتت أهالي فلسطين نتيجة استعمارها واحتلالها من قبل الصهاينة، مما اضطر كثيرا من سكانها إلى النزوح طلبًا للرزق. لقد بدأت هجرة أهالي الطيبة ابتداءً من بداية هذا القرن الذي شارف على نهايته لأسباب عديدة:

أولًا: تفادي تجنيدهم من قبل السلطة العثمانية للمحاربة مع الجيش العثماني.

ثانيًا: احتلال فلسطين وقيام دولة الصهاينة على أنقاضها.

وعدد من خرج من الطيبة أضعاف ما فيها حاليًّا، يقيمون في شتى أنحاء العالم من البلاد العربية والأجنبية، والبعض يرى أن تعداد أهالي الطيبة يقارب 5000 نسمة وقد يتجاوزون هذا الرقم. وفي مطلع القرن الماضي هاجر الكثير من الرجال وعاشوا في الغربة واقترنوا بنساء لا تمت إلى الطيبة بصلة، وبعد وفاتهم نشأ أبناؤهم يجهلون موطن آبائهم الأصلي.

تضم الطيبة الآن حمولتين كبيرتين هما الكونة والديوك..

حمولة الكونة: يعزو البعض هذه التسمية لأحد جدود هذه الحمولة ويُدعى كيوان، ويعزوه آخرون كما جاء في كتاب مدينة بيرزيت لمؤلفه موسى علوش لكلمة «التكوين»، أي انضمام عائلات أخرى إلى بعضها، سمّوا «الكونة»؛ أي المجتمعون معًا.

حمولة الديوك: ينتسبون إلى جدهم يعقوب الديك الذي نزح إليها من تل الصافي.

تتألف حمولة الكونة من العائلات التالية:

1. الدرارجة والعواودة، وتضم: طايع، عاصي، زايد، قرط، شاهين، صلاح، خليفة، عادي، معدي، يونس، سالم، برهم.
2. الطبابزة وتضم: عواد، البصير، جاسر، الخوري.
3. عرنكي وتضم: عرنكي ورزق.
4. خليل، فرحات، جودة، وتضم:
   - خليل وهم: راضي، كيوان، الصوف، حبش، الدويري.

- فرحات وهم: ليصون، ثلجي، دعدوش، مصلح.
- جودة وهم: جودة، نعمة، معروف.

5. حنا وتضم: حنا، عيسى العودة.
6. المصيص وهم أبناء الشب وهم: نصار، منصور، وعيسى.

وأبناء الشايب وهم: مصيص، سليمان اليعقوب، وأولاد صالح.

7. خورية وهم: الخوري وخورية.

أبو عيسى وهم: ميخائيل، عويس، خوري.

8. المشرقي.
9. حليس وتضم:

- دار منصور وهم: منصور، دغباج، جابر، دحبور.
- أبو فرنسيس، وأبو زعير.
- عطا الله، جودة، مسلم (خرابش).
- مقبل، عوض الله، أبو الياس
- زينة.

حمولة الديوك وتتألف من العائلات التالية:

1. صلاح، وتضم: نصر، دحدل، غرفة، عيسى (وهو من غرفة ولقب بالحجل).
2. مسلم، وتضم: خوري، سعيد، يغنم، بقيلي، فرج (فرع الحصن).
3. يوسف ساحلية.
4. المناصرة، وتضم: الغوراني، أبو ساحورية (أبو حماد).

5. السراحين، وتضم: خضر، موسى، غطاس، مزهر، زهران، سابا، العبد.

6. الرددة، وهم: بركات، جبر، مخلوف، حمامة، أعرج، نعواس، تادرس، عامر، أبو زيبار، الصفدي، البر، تحسين، أبو سليم، نزال.

الطيبة كأي قرية فلسطينية كانت في السابق تعتمد على الزراعة، إذ كان أهلها يعيشون مما تصنعه أيديهم. ويزرعون الأشجار المثمرة وأهمها شجرتا الزيتون والتين. وكانوا يزرعون الحبوب ويربون المواشي، مكتفين ذاتيًّا، إذ كل شيء كان متوفرًا: اللحوم والخبز والخضروات. وعلى بساطة أكلهم فإنه كان مغذيًّا. ففي الصيف التين والعنب، وفي الشتاء ما يخبئونه من الصيف. أما التين والقطين فحدث عنهما بلا حرج. الحلوى كانت عندنا من القطين كشيء يومي، والتين كانت له أسماء كثيرة منها: البياضي، والخروبة، والسوادي والعديسي، والمدني، والغزالي، والخضري، والموازي.

والآن بعد أن تحدثت عن جغرافية الطيبة فلنعرج على التاريخ؛ تاريخ الطيبة منذ البدايات:

لقد جاء العرب إلى فلسطين والبلدان المجاورة من شبه الجزيرة العربية التي لم تكن صحراء كما هي عليه الآن، بل كانت الأودية التي نراها جافة الآن في شبه الجزيرة تتخللها أنهار عظيمة، ويهطل المطر عليها طوال السنة، وعندما تغير المناخ ما بين 35,000 و12,000 قبل الميلاد بدأ نزوحهم إلى البلدان المجاورة: العراق وسورية ولبنان والأردن

وفلسطين. وإذا علمنا أن أريحا كانت مسكونة بين الأعوام 8000 و6000 قبل الميلاد، وأنها أقدم مدينة في العالم، وإذا كان الكنعانيون قد أتوا إلى فلسطين منذ 4 آلاف سنة قبل الميلاد، فإن الطيبة التي بناها الكنعانيون كما أسلفنا تكون قديمة جدًّا.

أهالي الغور ينزحون في الصيف إلى الجبال، ولقرب الطيبة من أريحا لا يستبعد أن يكون أهالي أريحا قد بنوا لهم أماكن في الطيبة منذ آلاف السنين.

أما المسيحيون فبدأ وجودهم في الطيبة منذ عهود المسيحية الأولى. أعمال الرسل تخبرنا أن عدد المسيحيين في العقود الثلاثة بعد المسيح أصبح ما بين 3 آلاف و5 آلاف شخص، بعد أن شفى مار بطرس المسلول، إذ كان بطرس ويوحنا يجوبون القرى ويعمّدون الكثيرين بوضع أيديهم عليهم، ومن هذه القرى كانت أفرام الطيبة التي استضافت المسيح قبل عدة أسابيع من صلبه كما أوردنا سابقًا، وكما ورد في إنجيل يوحنا في الإصحاح 11 عدد 54، وكما ذكر المؤرخ يوسيفوس في كتابه الذي كرَّسه لأسماء الأماكن في الكتاب المقدس.

وكذلك ذكرها من بعده المؤرخ يورونيموس الذي عاش من 347–420 بعد الميلاد، وكان يترجم الكتاب المقدس في المغارة الواقعة تحت كنيسة المهد خوفًا من اضطهاد الرومان له. كما ورد ذكرها في سفر شيوع إصحاح 18 أعداد 21–24. وهي إحدى مدن سبط بنيامين وهي: أريحا،

بيت حولة، ووادي قصيص، وبيت العربة، وحمارايم، وبيت إيل، والعويم، والغارة، وعفرة.

أما في سفر القضاة (1200-1000 قبل الميلاد) فجاء ما يلي:

إصحاح 6 (عدد 11-12)، جاء ملاك الرب وجلس تحت الذمة في عفرة التي ليواس الأليعزري، وهو ابن جدعون. هذا غيض من فيض من تاريخ الطيبة (عفرا، أفرايم) قديمًا كما ورد في التوراة.

ورد ذكر الطيبة في خريطة مأدبا الفسيفسائية المحفوظة للآن في كنيسة الروم الأرثوذكس ويعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادي. كما يعتقد بعض العلماء. وجاء في كتاب «الأردن تاريخ وحضارة آثار» لمؤلفه الأب لويس مخلوف: إن خريطة مأدبا تقدم لنا أقدم خريطة مصورة عن الأردن وفلسطين ومصر، وإن كنا لا نعلم التاريخ الدقيق لوجود هذه التحفة الفريدة، إلا أن العلماء يعتقدون أنها تعود إلى سنة 565 ميلادي[1].

وإذا كانت هذه الخريطة ذكرت اسم الطيبة أفرام وأسماء مدن فلسطين العريقة في التاريخ: أريحا ونابلس والبلد ويافا وعسقلان، فما ذلك إلا لكون الطيبة كانت وما زالت تتمتع بشهرة تاريخية عريقة.

ورد ذكر برج الطيبة في كتاب الحروب الصليبية لمؤلفه ر. س. سميل ترجمة سامي هاشم ص288 كما يلي: يظهر دليل للمباني، أن أبراج المصراع وبرج العطعوط وقانون تعود في تاريخها إلى القرن الثاني عشر

(1) كتاب الأردن تاريخ وحضارة آثار، ص50.

الميلادي، كما يقع إلى الشمال من القدس برج اللسانة الذي يشرف على طريق نابلس وفي مكان لا يبعد عنه يقع برجا خان البرج والطيبة[1].

أما ياقوت الحموي المتوفى سنة 626 هجري الموافق 1228 ميلادي فيورد اسم الطيبة تحت اسم عفراء، إذ يقول في موسوعته الجغرافية المسماة «معجم البلدان» الجزء الرابع، نشر دار صادر، ص131 ما يلي: «وسفراء حصن من أعمال فلسطين قرب بيت المقدس»[2].

أما الأب المرحوم بشارة فروجي الذي قضى أكثر من عشرين عامًا كاهنا لطائفة اللاتين في الطيبة، وانتقل منها عام 1945، فيذكر في كتاب الإنجيل الذي عُني بنشره عندما أراد أن يوضح أن أفرام هي الطيبة، أنَّ القائد في سبستيان الذي قاد حملته إلى فلسطين لمحاربة اليهود سنة 68 ميلادي والذي اصبح سنة 69 إمبراطور روما، كان قد وضع حامية في الطيبة عندما كان متوجهًا للقدس. كما ذكر الأب الفروجي أن كنيسة الخضر قد بنيت في القرن الحادي عشر الميلادي.

فإذا كانت الطيبة أحد الممرات للذهاب للقدس فإن صلاح الدين الأيوبي قد افتتحها هو الآخر ومرّ بها عندما ذهب لتطهير القدس من الصليبيين، بعد أن هزمهم في معركة حطين سنة 1187 ميلادي. وكانت تسمى عفرا آنذاك كما ورد في كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين (النورية

(1) كتاب تاريخ الحروب الصليبية، ص55.

(2) كتاب معجم البلدان، الجزء الرابع، ص131.

والصلاحية) تأليف الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن إسماعيل، المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي، ذكرها من جملة البلدان التي فتحها في توجهه لفتح القدس، إذ يذكر في الجزء الثاني: وقد اشتمل الفتح على البلاد المعنية بعد وهي طبرية، عكا، بيت جبارين، بيت لحم، صوبا، سلع، عفرا[1]. ولم يرد سوى ذلك عن الطيبة في ذلك الكتاب مع أنني وغيري سمعنا أن الذي دعاها باسمها الحالي هو صلاح الدين الأيوبي، وهذا غير مدون في ذلك الكتاب الذي قرأته مع ذيله ولم أعثر على أي ذكر للطيبة فيه، إنما المذكور هو «عفرا» فقط.

- الأماكن التاريخية في الطيبة

بما أن المسيحيين وُجدوا في الطيبة منذ نشأة الديانة المسيحية فإن أقدم ما فيها هو الكنائس.

على أنقاض كنيسة الروم الأرثوذكس الحالية كانت تقوم كنيسة أثرية قديمة يرقى تاريخها إلى عصور المسيحيين الأوائل.

كما أن كنيسة الخضر الأثرية الموجودة حاليًّا قديمة هي الأخرى، فجرن المعمودية الموجود فيها يرقى إلى القرن السادس الميلادي، كما أن مقبرتها هي الأخرى مقبرة أثرية، إذ لا يوجد في الطيبة أي مقبرة أخرى. ففي جنباتها يرقد آباؤنا وأجدادنا الأوائل منذ آلاف السنين، ويصح فيها قول أبي العلاء المعري:

(1) كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، الجزء الثاني، ص89.

رُبَّ لحد قد صار لحدًا مرارًا ضاحك من تزاحم الأضداد

كما يوجد في مقبرة الطيبة مغارة تسمى مغارة مار إلياس، والأرض التي تقع خلفها إلى شرق المقبرة تسمى مار إلياس، مما يدل على أن مار إلياس قد زار الطيبة هو الآخر وإلا لما كانت هذه التسمية: مغارة أم إلياس والأرض المجاورة لها.

أما كنيسة اللاتين فبنيت فيها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الكنيسة التي هدمت لتُبنى بجانبها كنيسة اللاتين الحالية. (1871-1861)[1].

ومن أماكنها الأثرية البوبرية (التي أزيلت من الوجود اليوم)، وكان يجب الاحتفاظ بها، إذ إن موقعها تاريخي واستراتيجي. فهي تقع في أعلى نقطة في الطيبة. وما بنيت هي والبرج الذي بجانبها إلا ليكونا موضعًا لحراسة الجنود الصليبيين في تحركاتهم، إذ إنها بنيت في القرن الثاني عشر الميلادي.

البوبرية استُخدمت لمراقبة الطرق، والبرج لإيواء الجنود والخيول والمؤن. جاء في كتاب موسوعة بلادنا فلسطين «الجزء الثامن» القسم الثاني في ديار بيت المقدس لمؤلفه مصطفى مراد الدباغ عن مواقع الطيبة الأثرية ما يلي:

(1) كتاب الوقائع الفلسطينية، ص1596.

يحتوي موقع الخضر على بقايا كنيسة لها ساحة وسُلّم، صهريج منقور في الصخر، مدفن، فسيفساء[1]. كما تقع قرية زعيتر إلى الشمال الغربي من القرية مرتفعة 907 أمتار عن سطح البحر. أما خربة المزارع فتقع في الغرب من الطيبة ومرتفعة بمقدار 901 مترًا عن سطح البحر وتحوي أنقاض جدران دور، وصهريجا كبيرا منقورا في الصخر، وبئرا في الجنوب الشرقي[2].

ومن آثار الطيبة التاريخية موقع تشيليا الأثري، ومن اسمه يستدل أن هذه التسمية رومانية، وربما كان أحد الأماكن الدينية، كدير كان يسكنه النساك في القديم. وقد أقيمت على تلك البقعة الآن مستعمرة صهيونية أسموها ريمونيم. ولو وجد الصهاينة أي آثر يهودي لحولوا تلك المنطقة إلى معابد إسرائيلية.

اسم الطيبة مشتق من الطيب، وقد سميت بلدان كثيرة بهذا الاسم الطيب في بلاد الشام، فهناك أربع بلدات في فلسطين هي بلدنا الطيبة–رام الله، وطيبة المثلث المسماة طيبة بني صعب قضاء طولكرم، والطيبة في قضاء جنين، والطيبة في قضاء بيسان، علما بأن الصهاينة قد دمروا جميع قرى قضاء بيسان ولم يبق منها سوى الطيبة، لحسن حظها، وقرية أخرى من ذلك القضاء واسمها كفر مصر. وهناك طيبة في جنوب لبنان، ويوجد

(1) كتاب الوقائع الفلسطينية، ص1596–1614.

(2) كتاب الوقائع الفلسطينية، ص1588.

في الأردن أيضًا قرى تسمى الطيبة، هي طيبة اربد، والطيبة الواقعة قرب محطة الإذاعة والتلفزيون وتسمى طيبة عمان، وهي بالقرب من الجويدة وخريبة السوق، وطيبة الكرك، وطيبة وادي موسى في منطقة البتراء التي حُولت أبنيتها القديمة إلى فندق ومسبح وأسواق أثرية يزورها السياح الذين يذهبون لزيارة البتراء، وتسمى طيبة زمان.

أما في سورية فتوجد الطيبة في منطقة درعا في محافظة حوران، ومثلها في منطقة قطنا من محافظة دمشق، وثالثة في ناحية دير الزور. وهناك طيبة أضيفت لها كلمة ثانية، منها في محافظة حماة: طيبة الاسم، طيبة الإمام، طيبة التركي، طيبة اليركج، وطيبة الاسم في منطقة الباب من محافظة حلب[1].

- المدارس في الطيبة

يقول مصطفى مراد الدباغ عند الحديث عن الطيبة: عَرفت الطيبة المدارس بمعناها الحديث منذ نحو 200 سنة، ففي سنة1190 هجري، الموافقة 1776 ميلادي تأسست مدرسة الروم الأرثوذكس. وفي عام 1275 هجري الموافق 1858 ميلادي أنشأ اللاتين مدرستين، وفي العام 1292 هجري الموافق 1875 ميلادي فتح البروتستانت لهم مدرسة[2].

(1) كتاب بلادنا فلسطين، الجزء الثالث، ص343.

(2) كتاب بلادنا فلسطين، الجزء الثالث، ص344.

أما الآن ففيها مدرستان ثانويتان: الأولى للاتين تأسست عام 1978 ميلادي، والأخرى للروم الأرثوذكس أصبحت ثانوية في السنة الدراسية1990 – 1991. فلا عجب والحالة هكذا أن كنا نجد من آبائنا وأجدادنا من يعرفون القراءة والكتابة في الوقت الذي كان فيه الحكم العثماني يحاول تتريك العرب.

– المؤسسات في الطيبة

إن أقدم المؤسسات التي وجدت في الطيبة هي المضاعفات، فهي التي كانت النادي والجمعية. فيها تقام الأفراح، الأعراس، المعايدات والأتراح أيضًا. ولقد كانت مدارس للأجيال الصغيرة، والمثل يقول «المجالس مدارس». كان الصغار يذهبون إليها ليسمعوا ما يقول آباؤهم، ومنهم يستقون الأخلاق والمبادئ الحسنة.

كانت المضافات، ويسميها أهالي الطيبة العلالي موئلًا لكل غريب، ولكل من كان يطلب المساعدة. وكانت تعج بالثوار خلال السنوات 1936–1938 إذ كانت دائمًا تحمي الثوار، تؤويهم وتطعمهم وتساعدهم على الانتشار والخروج بين غابات الزيتون إذا استشعروا خطر مداهمتهم من قبل جيوش المستعمرين الإنجليز.

أهم المضافات (يسميها أهالي الطيبة العلالي) التي نعرفها الآن وكلها تقريبًا غير مستعملة لأن الذين كانوا يعمرونها قد أصبح معظمهم، إن لم نقل كلهم، في عداد الموتى، هي: علية الكونة ومكتوب على شاشتها أنها

بنيت سنة 1864 ميلادي، علية الديوك، علية المصيص، علية الرددة، علية الطبابزة. وكانت بعض هذه العلالي في بيوت أصحابها كعلية حنا المعدي، وعلية دار أبو خورية، وعلية دار حليس.

أما المؤسسات الأخرى فهي تندرج تحت الآتي:

1. جمعية الشبان الأدبية الوطنية في الطيبة، تأسست سنة 1932 ميلادي، وبقيت حتى سنة 1957، إذ حُلت لأسباب سياسية. إلى أن أعيد تأسيس جمعية أخرى سنة 1961 وسميت جمعية الإصلاح الخيرية.
2. جمعية سيدات الطيبة الخيرية، تأسست سنة 1945، وهي التي قامت ببناء السور الحالي حول المقبرة.
3. مجموعة كشافة الطيبة. تأسست سنة 1938 ميلادي في القدس، وكان يرأسها المرحوم حنا سليمان عادي. وعام1961 ميلادي تأسست فرقة المرشدات، وانضمت إلى الكشافة تحت اسم اتحاد شبان الطيبة ومرشداتها.
4. المجلس القروي، تأسس سنة 1953 ميلادي، والعمل الآن جار على تحويل ذلك المجلس القروي إلى مجلس بلدي. نتمنى للقائمين عليه سرعة إنجازه والاتفاق على عمله ليقوم بالمهام الجسيمة التي تحتمها عليه الظروف الصعبة التي يعيشون فيها.

عرفت الطيبة المدارس في وقت سبق العديد من القرى في منطقة شرق رام الله، وهو ما أكده كتاب «الطيبة عبر العصور»، إذ يذكر الكتاب العديد من التواريخ الهامة لوضع حجر الأساس لعدد من المدارس قبل ما يزيد على مائتين وخمسين عامًا. فيؤكد مؤلفو الكتاب أن الطيبة كانت قد عرفت المدارس بمعناها الحقيقي عام 1776، فقد أُسست بطريركية الروم الأرثوذكس أول مدرسة فيها، وفي عام1850 أصبحت هذه المدرسة ابتدائية بالكامل وضمت 100 طالب وطالبة، في حين أصبحت مدرسة ثانوية في عام 1850 وضمت آنذاك 121 طالبًا وطالبة، ومن ثم لحقتها المدارس الأخرى: مدرسة اللاتين ومدرسة المعارف[1]. وهذه إشارة واضحة إلى أن الطيبة كانت قد سبقت بالفعل العديد من القرى المجاورة لها. فنسبة الأمية كانت منخفضة جدًّا أسوةً بسواها. فعلى سبيل المثال جدتي والدة أبي المتوفاة عام 1984 عن عمر يناهز الثمانين عامًا ونيف كانت تعرف جيدًا القراءة والكتابة. كما تميزت الطيبة عن سواها بتطور بنيتها التحتية من شوارع معبدة، وكانت سبّاقة في إمدادها بشبكة الكهرباء قبل سواها من القرى المجاورة كدير جرير ورمون.

تأسس في الطيبة أول مجلس قروي عام 1953، ثم تطور ليصبح مجلسا بلديا إبان دخول السلطة الوطنية الفلسطينية بعد اتفاقية السلام عام 1994. كما عرفت الطيبة العديد من الجمعيات والمؤسسات الهامة التي

(1) كتاب الطيبة عبر العصور، ص67.

أسهمت في تطورها وبنائها عبر السنين. لم يكن تعدادها السكاني عبر الزمان يزيد على الألف إلى الألف وخمسمائة نسمة، لكنها كانت متطورة نسبيًّا مقارنة بالقرى المجاورة. عدد السكان لم يتغير كثيرًا، لكنها كانت تبدو وكأنها تعج بالناس أكثر بأضعاف مما هي عليه الآن.

كتاب «الطيبة عبر العصور» من إعداد المرحومين عمي أندراوس الحنا والسيد نعيم طايع الصادر عن مطبعة منصور الحديثة في البيرة عام 1995. يقع الكتاب في 267 صفحة ويتكلم بإسهاب عن الطيبة. وللحقيقة يعتبر هذا الكتاب الوحيد مصدرا أساسيا يتكلم عن الطيبة تاريخا وحضارة، وتسمياتها المختلفة عبر التاريخ، وعن جغرافيتها، وسكانها بعائلاتهم، وطوائفها وطبيعة حياتهم بما يتضمن العادات والتراث والتقاليد. والأهم من ذلك فقد قام معدا الكتاب بتوثيق الأمثلة والأغاني والأهازيج المخزونة في الذاكرة الشعبية والمنقولة بالشفاهة من جيل إلى آخر، والتي يرددها أهل البلدة الرجال والنساء في كافة مناسبات الأفراح، مع شرح تفصيلي للعادات والتقاليد. هناك ما يزيد على المائتين وسبعين بيتًا من العتابا ومئات الأبيات من الأغاني المختلفة والسحجة التي أشرت إليها سابقًا.

أما واقعها الجديد كما رأيته فقد تغير كثيرًا، فهي لم تعد قرية بكل معنى الكلمة، بل بلدة فيها عدة ورش ومصانع للصناعات الخفيفة مثل: شركة للخرسانة الجاهزة، ومصنع للخمور، واحد للبيرة والآخر للنبيذ، وعدة ورش صغيرة مختلفة الطابع. ما لفت انتباهي على الرغم من أن

الشوارع في الطيبة معبدة ومنظمة منذ أمد بعيد، أن ظاهرة إنشاء المصانع بين المنازل موجودة، وهي ظاهرة غير مستحبة على الإطلاق. كان الأجدى لرؤساء البلديات والمجالس البلدية المتعاقبة أن يكونوا أكثر حزمًا، وأن يخصصوا منطقة خاصة صناعية في أطراف البلدة، وإجبار أصحاب المصانع بالقانون أن يبنوا مصانعهم عليها لدرء خطر التلوث الناتج عن المصانع والإزعاج للسكان.

بين الماضي والحاضر تبدلت الكثير من المعالم الحيوية، زادت معدلات الهجرة إلى الخارج، خاصة من الشباب، وفقدت البلدة الجيل الذي عاصر أفراده ويلات الاحتلال سنوات النكبة والنكسة وهم في ريعان شبابهم، فلم تثنِ من عزمهم بل صمدوا في أرضهم مقاومين هذا الاحتلال البغيض، منهم المناضلون السياسون أصحاب الفكر الذين تم أبعادهم من قِبل سلطات الاحتلال كوالدي أو العم إميل عواد في بداية الس

بعينيات وكلاهما أُبعد من القدس. ومنهم من استشهد برصاص جيش الاحتلال كالشهيد سليم رزق في سبعينيات القرن الماضي، والشهيد الشاب إبراهيم عرنكي في الانتفاضة الأولى، والشهيد الكاتب والصحفي حنا مقبل الذي اغتالته يد الغدر في قبرص عام 1984، وهو صاحب المقولة المشهورة «بالدم نكتب لفلسطين»، وغيرهم من المناضلين والمناضلات من جيل الشباب والشابات الذين حوكموا وسجنوا في السجون الإسرائيلية. لهذه البلدة تاريخ عريق في كافة المجالات،

وخرّجت كوكبة من المناضلين والسياسيين والكتاب والمتعلمين في كافة التخصصات. عندما نبصر ونتفكر في هذا التاريخ العريق ونرى هذه الحالة من الاحتضار نعرف كم هي بحاجة إلى أبنائها الآن، فهي ليست بحاجة إلى الأحجار التي تصطف في منظر بديع مكونة لوحة جميلة لبيت هنا في منتصف البلدة، وعمارة أو فيلا هناك في أطرافها، فيتسابق الجميع على تصميم هذه اللوحات الفارغة، الأرض بحاجة إلى البشر وليس الحجر لتزهو وتزدهر وترتقي بأبنائها، خاصة الذين وُلدوا وعاشوا فيها.

لقد تبدلت معالم الأرض وتبدل البشر، لكن التاريخ باقٍ وشاهد على مر العصور ما حل بها من ازدهار ونكبات في ظل الاحتلال البغيض. هذه البلدة كما ذكرت ما هي إلا نموذج يعكس ما حل بالريف الفلسطيني في العقود الماضية، وهو ما سأتناوله عبر طيات هذا الكتاب، الذي هو محاولة لفهم الحاضر والواقع من خلال دراسة مجموعة من الملاحظات والشواهد التي رصدتها عيناي خلال زيارتي هذه إلى فلسطين، في محاولة متواضعة أضعها بين يدي القارئ لتحليل تلك الشواهد والحقائق ليتسنى لنا فهم كيف آل وضع البلاد إلى ما هو عليه الآن. كما أني رصدت واقع الحياة الاجتماعية وتبدلها عبر الزمن، فقد تغيرت ملامح فلسطين وتبدلت علاقات البشر بعضهم ببعض نتيجة للتبدل الذي طرأ على كافة مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو ما سأتناوله بالتفصيل في صفحات هذا الكتاب.

الطيبة–منظر عام

• الجولة الثانية: مدينة رام اللَّه

كنت أتحرق شوقًا لأزور مناطق أخرى في فلسطين التاريخية، فكانت الزيارة الأولى لمدينة رام الله.

ها هي رام الله، وقفت أنظر إليها عندما تجاوزنا البيرة باتجاه مركز المدينة. فقلت في نفسي كم تغيرت ملامح المدينة عما أذكرها قبل ثلاثين عامًا ونيف!

ونحن على مشارف مدينة البيرة، عادت بي الذكريات إلى أيام السبعينيات عندما كنت أتردد مع والدتي لزيارة بيت الرفيق «أبو القاهر» وزوجته أم قاهر (الرفيق ضمين عودة). ما زلت أذكر ذلك البيت الحجري المكون من طابقين، ودار أبو القاهر يسكنون الطابق العلوي،

حاولت أن أذهب إلى تلك المنطقة لكني لم أتبينها لاختلاف معالم المكان. كما تذكرت زياراتنا المتكررة مع والدتي وترددنا لمنزل الرفيق «أبو العبد» (الرفيق بشير البرغوثي). فقد كانت والدتي وأبو العبد أعضاء في اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الأردني آنذاك. كانت رام الله في مخيلتي تتركز في تلك الزيارات إلى بيوت الرفاق، رفاق النضال لوالدي ووالدتي خلال مسيرتهما النضالية في فلسطين قبل الإبعاد القسري وبعده.

ها هي العاصمة المؤقتة التي اختارتها السلطة الوطنية الفلسطينية لحين تحرير مدينة القدس العاصمة الأبدية والتاريخية لفلسطين. أردت أن أرى بأم عيني كيف تغيرت وتبدلت أحوال هذه المدينة بعد أن جاءت السلطة الوطنية واتخذت منها مقرًّا للحكومة والوزارات والدوائر المختلفة.

كانت رام الله المدينة الأولى التي قررت زيارتها في الحال لأنها الأقرب جغرافيًّا لمكان إقامتي؛ فهي تبعد مسافة لا تزيد على اثني عشر كيلومترًا عنها، وتعتبر هذه المسافة قريبة جدًّا لمن يعيش في أي مدينة من المدن الكبرى، ذلك أن المسافة بين أحياء المدينة الواحدة قد تزيد على هذه المسافة بشكل عام، فرام الله مدينة صغيرة، وكانت جغرافيا المكان لا تزال في مخيلتي لما فيها من المعالم الهامة والمرافق التي تفاجأت باندثارها مع مرور الوقت.

لم تكن رام الله وحدها في مخيلتي فقط، فهناك الكثير من الذكريات التي اختزنتها ذاكرتي في الزيارات مع والدتي لبعض القرى المجاورة لرام

الله. ما زلت أذكر مواظبة والدتي على زيارة آل العاروري، خاصة العم «أبو شريف» -رحمه الله- من برهام، وهي قرية تقع شمال غرب رام الله.

كنت قد سمعت الكثير من زوجتي والعديد من الأقارب بأن الطريق المؤدي إلى رام الله شائك وطويل، لأن الطريق الرئيسي قد أُقفل من قِبل قوات الاحتلال.

كانوا يتحدثون عن الحواجز التي يضعها جنود الاحتلال لإغلاق الطرق بين المدن والقرى لتقطيع أوصالها. أن ترى الشيء بأم عينك يولد لديك شعورا مختلفا عما وُصف لك، إذ ترى الفرق شاسعا عما تخيلته.

سمعت الكثير عن هذا الحاجز الواقع على الطريق الرئيسي القادم من قرى شرق رام الله مرورًا بـ«بتين» التي تتوسط الطريق بين مستعمرتي عوفرا وبيت إيل التي تقع بدورها على مدخل مدينة البيرة مباشرةً.

تعمل سلطات الاحتلال باستمرار على اجبار السكان الفلسطينيين على سلوك الطرق الالتفافية الطويلة كإجراء روتيني لتمنع الاحتكاك مع المستوطنين، ولزيادة عناء الشعب الفلسطيني ومضايقته في حياته اليومية بشكل متعمد. كان هذا الطريق قد أُقفل منذ مدة طويلة -بحسب ما قيل لي- قد تزيد على عقد من الزمن أو فوقه بقليل. لا أعرف على وجه الدقة. لهذا كانت هناك العديد من الطرق الالتفافية عبر القرى المحيطة بمدينة رام الله، والتي تعوّد أن يسلكها الفلسطينيون بشكل غير ثابت، فذلك يعتمد على مستجدات الأحداث اليومية والمناوشات مع قوات

العدو وسلطات الاحتلال التي تسمح بسهولة الحركة أو تغلق الطرق كيف تشاء.

تزامن خلال فترة زياراتي لفلسطين إغلاق جزئي للطريق المؤدي إلى رام الله، وذلك بعد الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، مما أتاح لنا التحرك خلال النهار وسلوك الطريق الرئيسي إلى رام الله عبر قرية بتين، لكن ذلك لم يمنعني إذا اضطررت من سلوك الطرق البديلة أكثر من مرة بسبب إغلاق هذا الطريق المسمى حاجز الـ (DCO) وهو مختصر (District Coordination Office) أي: المكتب التنسيقي للمنطقة، الذي يقع على مدخل مستعمرة بيت إيل وهي من أكبر المستعمرات في المنطقة.

زرت رام الله عدة مرات خلال زياراتي لفلسطين، لكنني أعتبر زيارتي الحقيقية للمدينة هذه الزيارة الأولى بعد ابتعادي عن أرض الوطن سنين طويلة قضيتها في الشتات، وهذا ما جعلني أنظر إليها وكأنني أكتشف معالمها ومرافقها الهامة كما لم أرها من قبل.

كنت تواقًا لأشاهد ما طرأ عليها من تغير وتبدل عبر السنين الماضية. عندما وصلنا إلى المدينة قال لي من كانوا برفقتي سنأخذك أولًا إلى الأحياء الجديدة في رام الله، التي شيدت بعد قدوم السلطة الوطنية الفلسطينية وكادر المنظمة ورأس المال الفلسطيني الذي عاد إلى فلسطين بعد اتفاقية السلام.

بعد مسير عدة دقائق في السيارة داخل هذا الحي الجديد في منطقة المصيون، وهي من المناطق الجديدة في رام الله، وتتمتع بمبانيها الجديدة والجميلة التي زينها الحجر الأبيض، وأظن بأنها تطورت عمرانيًّا في السنوات العشرين الأخيرة بوجود السلطة الوطنية الفلسطينية بعد أوسلو. وصلنا إلى متحف الشاعر الراحل محمود درويش. هذا المتحف الذي تم افتتاحه عام 2012، وهو عبارة عن مبنى مكون من طابق واحد على تلة مرتفعة محاطة بالأشجار الباسقة المرتفعة.

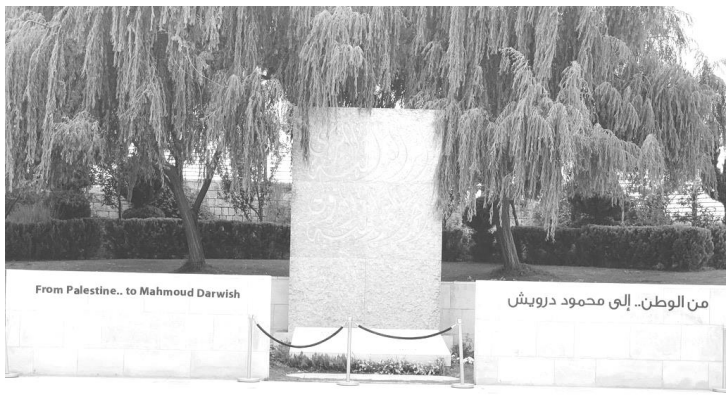

حين صعدنا الدرج التفت خلفي فرأيت رام الله تطل أمامي بمبانيها الجديدة. بدت مدينة مترامية الأطراف، فأدركت كم توسعت المدينة عمرانيًّا، وبدت في غاية الجمال. كان المنظر بديعًا، وما زاده جمالًا

اعتدال درجة الحرارة والهواء اللطيف الذي كان يداعب المكان. تاه نظري بين تلك المباني، وسرحت بمخيلتي وأنا مستمتع بزهو المنظر، وقد صحوت على مناداة زوجتي لي تدعوني لندخل المتحف.

تعودت زيارة المتاحف في الدول التي أزورها لقناعتي التامة بأن المتاحف هي مرآة الحضارة لتلك البلاد، ودائمًا ما تشدني المتاحف منذ زمن بعيد.

دخلنا المتحف الذي يحتوي على صالة متوسطة الحجم معروض فيها لوحات مختلفة منقوش عليها بعض الأبيات الشعرية لمحمود درويش. كانت تلك القصائد منتقاة بعناية من دواوينه المختلفة، كانت هناك أيضا صور ومقتنيات شخصية للشاعر الذي لقبه الرئيس الراحل ياسر عرفات بشاعر الثورة. في الطرف الآخر من المتحف كان هناك متجر صغير لبعض من دواوينه الشعرية، وشيء من المناظر التذكارية والبطاقات المختلفة للزائرين وللسياح.

تجولنا في أرجاء المتحف وتوقفنا عند اللوحات التي تعرض عددا من القصائد المميزة لمحمود درويش، التي تختزنها الذاكرة، والتي منها ما تحولت إلى أغانٍ وطنية غناها الفنان مارسيل خليفة وغيره من الفنانين. ومنها قصائد اشتُهرت وحُفظت أبياتها التي تعبر عن نضالات الشعب الفلسطيني، وهي كثيرة.

لقد كان محمود درويش شاعرًا مميزًا في التاريخ الفلسطيني الحديث، لكنه ليس الأوحد، فهناك غيره الكثير من الشعراء الفلسطينيين الذين لا

يقلّون قدرة وشهرة عنه، وقدموا العديد من القصائد المحفوظة في الذاكرة الشعبية، من أمثال الشاعر إبراهيم طوقان وسميح القاسم وتوفيق زيّاد، والقائمة تطول.

بعد أن انتهينا من زيارة المتحف والتقاط الصور التذكارية هناك، انتقلنا لنرى النصب التذكاري لنيلسون مانديلا في منطقة ليست بعيدة عن المتحف. هذا النصب التذكاري تم تدشينه في العام 2016، وهو تقدمة من بلدية جوهانسبيرغ في جنوب إفريقيا، للرئيس الراحل نيلسون مانديلا، الرئيس الأسبق لجنوب إفريقيا الذي يعتبر رمزًا للنضال الوطني، وللسلام والحرية في العالم.

عندما ترجلت من السيارة رأيتني أقف في مواجهة هذا التمثال الكبير للقائد العظيم نيلسون مانديلا. شعرت أن الكلام تاه مني وابتلع الصمت لساني أمام التمثال العملاق لهذا المناضل الذي ناهض نظام الفصل العنصري وبقي سجينًا لفترة طويلة من الزمن امتدت على مدار سبعة وعشرين عامًا ونيف. بهذا فقد قاد جنوب إفريقيا إلى النصر، فنالت استقلالها وحريتها وحرية شعبها بغالبيته السمراء بعد أربعمائة عام من حكم نظام الأبارتهايد العنصري. تم الإفراج عن مانديلا عام 1990 وأصبح أول رئيس ذي بشرة سوداء لدولة جنوب إفريقيا وذلك بين العامين (1994-1999)، في حين كان البيض هم المسيطرون على الحكم لقرون طويلة.

وجود تمثال لنيلسون مانديلا في فلسطين هو بمثابة شعلة من الأمل لشعبنا العربي الفلسطيني التواق للحرية والانعتاق من ظلم الاحتلال الصهيوني الغاشم إلى يومنا هذا. لعله يكون نبراسًا لشعبنا الفلسطيني ليؤكد من جديد أن هذا الاحتلال مصيره الزوال مهما طال الزمان.

حين غادرنا المكان ونحن في المركبة تبادلت أطراف الحديث مع زوجتي وقلت لها:

على الرغم من عظمة مانديلا وتقديري له كمناضل شرس، إلا أن تاريخنا الفلسطيني مليء بالأسماء النضالية التي قدمت الكثير من أجل القضية الفلسطينية على مدار العقود الماضية، ولا تقل أهمية في نضالاتها وتضحياتها وشهرتها العالمية عن نيلسون مانديلا، وهي تستحق بدورها التكريم أيضًا ويجب أن تعرفها الأجيال الحديثة، فعلى سبيل المثال نيافة المطران المناضل إيلاريون كبوشي (1922-2017)، مطران القدس للروم الكاثوليك، يستحق أن يُخلَّد هو بدوره في نصب تذكاري لما قدمه حتى آخر يوم في حياته من أجل القضية الفلسطينية، على الرغم من أنه سوري الأصل وابن حلب، لكنه فلسطينيُّ الهوى والنضال، ولم يتوان يومًا عن العطاء لفلسطين متحديًا سلطات الاحتلال وإصراره على الرجوع إلى القدس بشتى السبل، ومنها محاولته الرجوع في سفينة العودة التي تسببت في اعتقاله وإبعاده مرة ثانية. هناك الكثير من المناضلين في التاريخ الوطني الفلسطيني الذين يستحقون التخليد والتكريم وأن تطلق أسماؤهم على الساحات والميادين.

في رام الله هناك الكثير مما يمكن أن يشاهده الزائر، إذ تتمتع هذه المدينة بجوها المعتدل صيفًا لارتفاعها ما يزيد على الـ 800 متر عن سطح البحر. فالمدينة تقع إلى الشمال من مدينة القدس، وتبعد عنها بحدود 15 كيلومترًا، وتبلغ مساحتها بحدود 16,5 كيلو مترًا مربعًا[1]. تأسست مدينة رام الله في القرن السادس عشر الميلادي زمان الحكم العثماني، وتعتبر تاريخيًّا من المدن الفلسطينية التي كان سكانها الأصليون يدينون بالمسيحية، لكن الحال قد تبدلت الآن فأصبح المسيحيون أقلية في زماننا هذا نتيجة لموجات الهجرة المتعاقبة التي أدت إلى تناقص عدد السكان بشكل ملحوظ.

في المدينة معالم هامة يجب أن تزار، فمثلًا زائر المدينة يجب أن يعرج بطريقه على بعض المحال التجارية والمطاعم التي اشتهرت بها المدينة منذ قديم الزمان مثل: بوظة ركب، وحلويات الأمراء، ومطعم أبو إسكندر للشاورما، فهي من المعالم التي زينت المدينة منذ عقود، ويقصدها القاصي والداني من زوار المدينة.

كانت رام الله عبر التاريخ مصيفًا هامًّا واشتهرت بالمنتزهات والمطاعم. وفيها بعض المصانع الهامة، ومنها مصنع السلفانا الذي كان من المعالم الهامة في المدينة، ومن المصانع التي شغَّلت الكثير من الأيدي العاملة الفلسطينية ما قبل الاحتلال وبعده، خاصة من قرى رام

(1) تاريخ رام الله (نسخة محفوظة على واي باك مشين).

الله. كانت سلفانا أشهر شوكولاتة في فلسطين، وكان المصنع ينتج أنواعا عديدة من الشوكولاتة والسكاكر التي كانت تباع في كافة مناطق فلسطين، وتُصدر للأردن وبعض الأقطار العربية. استمر المصنع بإنتاج الشوكولاتة اللذيذة لسنوات طويلة بعد الاحتلال ولغاية الانتفاضة الأولى، حين تراجع الإنتاج نتيجة للظروف وتضييق الخناق على حركة البيع والتصدير والتوزيع من قِبل سلطات الاحتلال، مما أدى إلى تراجع ملموس في الإنتاج، واضطر أصحاب المصنع لقصر الإنتاج على ثلاثة أيام في الأسبوع. وعندما تعافى الوضع حاول ملاك المصنع النهوض به من جديد، فجاءت الانتفاضة الثانية وتلازمت مع موت مؤسس المصنع، ما اضطر أولاده إلى أن يقفلوا المصنع كليًّا، وبهذا أُسدل الستار على هذا التاريخ العريق من صناعة الشوكولاتة التي عرفتها الأجيال قبل وبعد الاحتلال. اختفى مصنع السلفانا من الوجود واختفت معه الكثير من المظاهر في رام الله، اختفت سينما الجميل، وتغيرت معالم المنارة كثيرًا، وتمددت المدينة إلى أحيائها الجديدة، كالمصيون الذي ذكرناه سابقًا، والذي يعتبر من أرقى مناطق رام الله الحديثة التي شيدت وازدهرت بعد مجيء السلطة الوطنية الفلسطينية. هذا الحي الراقي هو حي الأغنياء وممثلي السلطة، يسكنه الكثير من القادة السياسيين وكوادر منظمة التحرير العائدين بعد أوسلو. كما شُيدت الكثير من الوزارات والدوائر الرسمية والعمارات الفارهة والفنادق وغيرها في هذا الحي تحديدًا.

تطورت مدينة رام الله كأي مدينة في الكون، اتسعت وزادت مساحاتها العمرانية مع الزمن رغم وجود الاحتلال البغيض، إلا أن طابعها بقي ذا نكهة خاصة، وحياة مدنية بالطابع الريفي الأصيل.

زرتها عدة مرات خلال فترة وجودي هناك، واستمتعت بكل لحظة كنت أرى فيها نبض الحياة يدب في المكان، فالسكان رغمًا عن الاحتلال لديهم الإصرار على استمرارية الحياة وتحدي المحتل ومضايقاته اليومية. ترى الإصرار على الحياة والعمل في عيون الكبار والصغار، وحتى الأطفال الذين لا يأبهون بالمحتل، فقد تعود الناس على هذا النمط من الحياة النضالية. عند المواجهات يتحول الشباب إلى كتلة من النار الملتهبة في مواجهة المحتل، ويشاركهم الكبير والصغير من النساء والشيّاب. لا تخلو أي واقعة أو مواجهة من استشهاد أحد واعتقال آخر وهكذا دواليك، فالمواجهات جزء من الحياة النضالية اليومية للناس، ولا تختفي البسمة عن وجوههم. وكنت كلما تمعنت في وجوه المارة أستذكر كلمات الشاعر الراحل سميح القاسم في قصيدته «تقدموا» التي يخاطب فيها المحتل ويقول فيها:

كل سماءٍ فوقكم جهنمُ
وكل أرضٍ تحتكم جهنمُ
يموت فينا الطفل والشيخ ولا يستسلمُ
وتسقط الأم على أطفالها القتلى ولا تستسلمُ

هذا هو شعبنا الفلسطيني البطل الذي يستحق منا كل إجلال وتقدير واحترام لنضاله، فمجرد الصمود في الأرض هو نضال حقيقي وتحدٍ صارخ في وجه المحتل الذي يريد تفريغ الأرض وطرد السكان، في حين يتشبث الفلسطينيون بأرضهم وبلدهم غير آبهين بكافة المخططات التي تحوكها حكومة الاحتلال.

كانت هذه زيارتي الأولى لرام الله، وبدأت أتعرف على طبيعة المكان وأرصد ما أراه وأسأل كثيرًا لأتبين مدى التغير عبر سنوات النضال المضنية للشعب الفلسطيني الصامد في وجه المحتل. هناك مثل روسي يقول ما معناه: «أن تسمع عن الشيء مئة مرة لا يغنيك عن رؤيته ولو لمرة واحدة»، لأنك وقتها فقط تستطيع أن تفهم بدلًا من أن تتخيل.

• الجولة الثالثة: متحف الشهيد ياسرعرفات

زيارتي الثانية لرام الله خصصتها لزيارة المتحف الخاص بالشهيد الراحل ياسر عرفات. ابتدأت جولتنا من الساحة الأمامية أمام المتحف وقبر الشهيد ياسر عرفات، ومن ثم إلى المتحف الذي يقع خلف الضريح مباشرةً. بُني المتحف على مساحة 2,600 متر مربع، وتم افتتاحه عام 2016 في الذكرى الثانية عشرة لوفاة الرئيس ياسر عرفات[1]. ومن الجدير بالذكر أن هذا المتحف من تصميم المهندس المعماري الفذ المرحوم جعفر طوقان، وهو ابن الشاعر المرحوم إبراهيم طوقان الذي يعتبر من

(1) متحف الرئيس عرفات (نشرة تعريفية عن وزارة السياحة).

أهم الشعراء في التاريخ الفلسطيني، وأشهر قصائده نشيد موطني الذي كان يومًا ما النشيد الوطني الفلسطيني، وتم استبداله بنشيد فدائي في زمن السلطة الوطنية الفلسطينية بعد أوسلو.

يعرض المتحف تاريخ فلسطين، ويركز على التاريخ الحديث منذ عام 1900 إلى عام 2004، ويحتوي على 120 لوحة من النصوص والصور عن المراحل المفصلية في النضال الوطني الفلسطيني، تتضمن الفترة الممتدة منذ بداية الهجرة الصهيونية إلى فلسطين في أوائل القرن العشرين إبان الاحتلال البريطاني، ومن ثم وعد بلفور المشؤوم بإعطاء الحق لليهود بالهجرة إلى فلسطين، وما تلاه من تأسيس دولة العدو عام 1948، مرورًا بكافة المراحل الوطنية في النضال الفلسطيني وتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني[1].

يعرض المتحف عبر 33 شاشة تلفزيونية مقتطفات وثائقية من واقع الصراع العربي الصهيوني منذ إرهاصاته الأولى لغاية عام 2004. للحقيقة والتاريخ صمم المتحف بتقنية عالية وبشكل مماثل للمتاحف الأوروبية في الترتيب والتصميم واستخدام التقنيات الصوتية والمرئية على أكمل وجه. عند مدخل المتحف هناك جدارية للشخصيات الأكثر تاثيرًا في

(1) المصدر السابق.

التاريخ النضالي للشعب الفلسطيني على مدار الأعوام المئة المنقضية، وفيها ممثلو الأطياف والتيارات السياسية الفلسطينية المختلفة.

ابتدأت جولتنا بالمتحف من نقطة البداية عندما تسلمنا جهازًا صغيرًا وهو عبارة عن سماعة مع جهاز صغير يوضع حول الرقبة، وفيه مفتاح للأرقام؛ تدوس على الرقم واحد في مقابل الشاشة الأولى لأجهزة التلفاز ويبدأ شريط الفيديو شارحًا بالصوت والصورة مقطعا من التاريخ الفلسطيني، ودواليك من الرقم واحد إلى الرقم ثلاثة وثلاثين. تلك الشاشات مثبته تباعًا، وتعرض التاريخ الفلسطيني وتسرد الحقائق التاريخية والمفصلية في حركة النضال الفلسطيني منذ البدايات. استوقفتني بعض الشاشات وسمعتها للنهاية، ومررت على الأخرى بشكل سريع لمعرفتي بالأحداث أو معايشتي للبعض منها إذ ما زلت أتذكرها جيدًا. في نهاية المتحف في الطابق الثاني هناك ممر مسقوف بني حديثًا يربط المتحف بمبنى المقاطعة القديم الذي كان مقرًّا للرئيس الراحل أبو عمار. عبرنا الممر الزجاجي الجميل المبني حديثًا إلى مبنى المقاطعة القديم وكنا في الطابق الأول، وما إن انتهينا من عبور الممر حتى استقبلنا مكتب أبو عمار بأثاثه المتواضع. كان هذا المكتب الرسمي للرئيس الفلسطيني في البداية، وبعد محاصرة المقر وقصفه من قبل القوات الإسرائيلية، تم نقل المكتب إلى الطابق السفلي كونه أكثر أمانًا، فأمسى مكتبًا ومقرًّا للرئيس والفريق الملازم له طيلة فترة حصار المقاطعة من قِبل سلطات الاحتلال.

كان الطابق السفلي عبارة عن ممر طويل يحتوي على جانبيه بعض الغرف، منها مكتب الرئيس وبعض المكاتب الأخرى لطاقم الرئيس، وغرف منامات للحرس ومطبخ وحمامات، وجميعها تحتوي على أثاثٍ بسيطٍ للغاية. أما غرفة النوم المخصصة للرئيس فكانت صغيرة لا تزيد مساحتها على عشرة أمتار مربعة، تحتوي على تخت متواضع وخزانة للملابس، وكان فيها ثلاث أو اربع بدلات عسكرية معلقة هي جميع مقتنيات الرئيس ياسر عرفات.

لقد عانى أبو عمار وعاش الكثير من الأحداث التي عصفت بالقضية الفلسطينية، وتعرض خلالها إلى العديد من محاولات الاغتيال التي يقال إنها زادت على سبع عشرة محاولة لكنه نجا منها جميعها. لقد عاش في مناطق الشتات من غزة إلى مصر فالكويت مرورًا بعمان وبيروت وتونس، إلى أن استقرت به الحال في رام الله بعد معاهدة أوسلو. لقد عاش حياة المناضلين متقشفا وبعيدا عن الحياة المترفة في القصور الفارهة والنعيم الزائل. ليس هذا فحسب، بل إنه لم يخلع الزي العسكري والكوفية الفلسطينية التي تميز بها وبطريقته الخاصة للجزء العلوي منها فوق العقال الذي يرمز إلى الخيمة وفلسطينيي الشتات بحسب بعض التفسيرات. لقد عانى الرئيس عرفات في سنوات الحصار وتحمل كثيرًا ومات في ظروف غامضة لا نزال لا نعرف تفاصيلها الدقيقة إلى الآن.

مع أني قد لا اتفق كليًّا مع سياسة الرئيس عرفات وحركة فتح عمومًا، إلا أني لا أستطيع إلا أن أقول الحق؛ فهذا الرجل رغم اختلاف وجهات

نظرينا السياسية، كان رجلًا مناضلًا عانى الكثير وتجرع مرارة الاضطهاد من قبل سلطات الاحتلال الصهيوني، ودفع حياته ثمنًا لذلك. كان يتمتع بشخصية كاريزمية وشعبوية في الوقت نفسه، مما أتاح له التقرب من الشعب الفلسطيني البسيط، وعرف معاناته عن قرب فكسب حب الكثيرين. وكان يحدوه الأمل دائمًا في النصر الذي كان يبشر به في خطاباته السياسية وشعاراته التي كان يرددها دومًا ورددها خلفه الشعب الفلسطيني. لم يكن خطيبًا بارعًا، لكنه كان يتبسط في حديثه مع البسطاء من الشعب لتصل أفكاره مفهومة بلغة بسيطة غير متكلفة. مع ذلك كان داهية في السياسة لمن عرفه عن قرب، لا يلتزم بأي قرار ولا أي اتفاق مع أي طرف كان حتى مع فصائل منظمة التحرير. وكان دائم التنقل والحركة والمراوغة بحيث لا تستطيع الفصائل الأخرى أن تأخذ ما يقوله على محمل الجد، فكان يتمتع بعلاقات جيدة مع الشرق والغرب، مع اليمين واليسار. فتيار فتح الذي كان يقوده الرئيس عرفات هو حركة فيها من أطياف الشعب الفلسطيني من أقصى يمينه إلى أقصى يساره. والملفت للنظر تاريخيًّا أن حب الشعب الفلسطيني لعرفات وشخصيته الكاريزمية انعكس على حركة فتح وشعبيتها التي كسبتها في ما بعد، فاستقطبت – أحيانا– الألوف من الشباب من أجل الشعارات العاطفية الرنانة التي كان يرددها عرفات في خطاباته. ولكي أوضح للقارئ العزيز، فأنا لا أنكر نضالات الشعب الفلسطيني بكافة تياراته وفصائله السياسية ومن ضمنها حركة فتح، فكافة الفصائل قدمت من الشهداء الكثيرين، وما زالت على

درب النضال حتى يسترد الشعب الفلسطيني حريته وحقه في تقرير مصيره على كامل التراب الفلسطيني. لكني إذ تحدثت عن الرئيس عرفات فقد قلت ما كان يختلج في صدري في وصف هذا الرجل بصدق دون مبالغة أو رياء.

كان بصحبتي زوجتي وأختها وابني وأبناء خالته. حين دخلنا مقر الرئيس شعرت باندهاش الشباب الذين أثارت استغرابهم مقتنياته المعروضة وهي متواضعة، فأمطروني بوابل من الأسئلة أذكر منها:

«هل هذه هي فقط مقتنيات الرئيس الشخصية؟».

فقلت لهم: «نعم، وما الغريب في ذلك؟».

فقالوا بصوت واحد: لا يمكن، وهل يُعقل هذا التواضع الشديد في حين يعيش أعضاء الحكومة والسلطة الآن في جاه وسلطان وفلل وقصور فارهة وهم أقل أهمية من ياسر عرفات، بل من الكثيرين من أعلام الشعب الفلسطيني ومناضليه عبر الزمن. ذلك أننا كنا قد رأينا خلال تجوالنا في رام الله بعض البيوت والقصور الفارهة التي تعود ملكيتها لرجالات السلطة من العائدين، ومنهم الرئيس محمود عباس الذي لا يستطيع المرء المرور بمحاذاة الشارع الذي يقطن به نتيجة لإغلاقه من قبل الشرطة الفلسطينية لدواع أمنية على الأرجح. وكان هناك أيضًا العديد من بيوت رجالات السلطة التي هي أقل شأنًا من بيت الرئيس الحالي لكنها محروسة من الأمن. فأدركت مدى اندهاش الأولاد، فقلت لهم:

«أعرف مدى اندهاشكم، لقد عودنا جهاز التلفاز على عرض الكثير من المشاهد للرؤساء ومن هم أقل شأنًا منهم من أعضاء الحكومة والمناصب الهامة في الدولة، وما يصاحبهم من جاه وسلطان عندما يتنقلون من منطقة إلى أخرى، لكن هذا لم يكن حال الرئيس ياسر عرفات، بل كان أكثر تواضعًا في معيشته ومسلكه في حياته اليومية. وتلك حقيقة معروفة للقاصي والداني. فشرحت لهم أن الرئيس عرفات عاش في الملاجئ والمخيمات والمعسكرات وبيوت سرية كثيرة في حياته، بل تعرض لما يزيد على 17 محاولة اغتيال ونجا منها جميعها».

بعد الانتهاء من هذه المحادثة القصيرة مع الأولاد، قفلنا عائدين من مقر الرئيس عرفات في مبنى المقاطعة القديم، ومن خلال الجسر الذي يربط المقاطعة بالمتحف لرؤية بعض القاعات التي تحتوي على العديد من اللوحات الفنية لفنانين فلسطينيين معاصرين.

بعد الانتهاء من كافة أرجاء المتحف التقيت بأحد الضباط هناك، وكان رئيس الحرس والمسؤول عن المتحف، ودار حديث بيننا كنت أنا من ابتدأ الحديث به عن المتحف وعن مقتنياته، وكانت لدي وجهة نظر حول تسمية المتحف، ودار حديث بيننا، فنقلت للضابط وجهة نظري بعد أن أكملت جولتي في أرجاء المتحف، أنه مع كل الاحترام لشخصية الرئيس ياسر عرفات وتاريخه النضالي إلا أنه كان من الأجدى أن يسمى المتحف «متحف فلسطين» أو «متحف تاريخ فلسطين» بدلًا من «متحف ياسر عرفات».

قال الضابط بعد أن رحب بي إن تاريخ فلسطين لا يمكن اختزاله بهذا المتحف الصغير، وإن هذا المتحف يعرض السنوات المائة الأخيرة للقضية الفلسطينية ونضال الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير وشخص الرئيس ونضاله ضد الصهيونية وتكريمًا له فقد سمي على اسمه.

لم أناقش طويلًا، قلت له إنها وجهة نظر وأحترمها. وبدوري شكرته على الإفادة، وعلى ما يقومون به من رعاية وتنظيم للمتحف ليكون رافدًا مهمًّا للأجيال الحالية والقادمة لمعرفة تاريخ فلسطين القديم والحديث. وقال إن الشباب الفلسطيني حي لا يمكن أن يستكين أو يهادن، ومهما تغيرت ظروف النضال فعندما تجدُّ الساعة فإن شبابنا يصبحون ككرات النار في مقاومة العدو.

قفلت عائدًا إلى زوجتي وابني اللذين كانا بانتظاري ريثما أنتهي من الحديث مع الضابط، ودار حديث بيننا حول الحديث الذي دار بيني وبين الضابط، فسألتني زوجتي التي كانت تقف بالقرب مني وسمعت جانبًا من الحديث: هل اقتنعتَ بوجهة نظره؟

قلت لها: كلا بالطبع، لأن تاريخ الشعوب أهم من الأشخاص وإن كانوا جزءًا من هذا التاريخ ولهم دور نضالي فيه، لكن مهما كان دورهم في النضال وموقعهم الرسمي، فهم جزء من هذا التاريخ وليس التاريخ كله.

في واقع الحال، لم تختلف السلطة الوطنية الفلسطينية عن باقي السلطات في عبادة الفرد أسوة بباقي الأسر الحاكمة في الدول العربية وغير

العربية، فالرئيس هو الشخصية الاعتبارية الأهم لأنه يجلس على العرش طويلًا بانتخابات ديمقراطية أو بدونها، فما بالك إن كان هذا الرئيس يتمتع بشخصية كاريزمية مميزة بحيث يصنع له الإعلام مقامًا مع الأيام أهم من التاريخ النضالي العام للدولة، وباسمه يصنع التاريخ ويخلد. وهذا ينطبق على الكثير من الرؤساء في عالمنا العربي وغيره، والرئيس عرفات كان واحدا من الشخصيات الكاريزمية في هذا العالم من الذين خلدهم التاريخ.

قد يتساءل البعض أو يظن أنني من المعارضين بأن يسمى المتحف باسم الرئيس عرفات، الموضوع لا يتعلق بتاتًا بقبول التسمية أو معارضتها، في الكثير من البلدان تسمى الميادين والمطارات والجامعات بأسماء شخصيات كان لها باع طويل سطر التاريخ إنجازاتهم في مجال السياسية والعلم والأدب والفن. شخصيات صنعت جزءًا من تاريخ بلدها، وهذا شيء جميل؛ أن يتم تسمية شارع، ميدان، مطار، أو متحف باسم تلك الشخصية تكريمًا وتخليدًا لها. لكن وجهة نظري أن فلسطين كونها ما زالت دولة محتلة، فإن من الأجدى أن يكون المتحف هو متحف تاريخ فلسطين؛ لأن تاريخ فلسطين ليس تاريخ منظمة «فتح» فقط، أو تاريخ الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات على أهميته النضالية والسياسية. فنضال الشعب الفلسطيني قد بدأ ضد المحتل الإنجليزي واليهودي قبل انطلاقة فتح أو حتى منظمة التحرير الفلسطينية. لم أر في المتحف أي ذكر للأحزاب السياسية الفلسطينية منذ بداية القرن العشرين مع بداية الهجرة

اليهودية، بل ركز المتحف على بعض المحطات التاريخية، لكن تاريخ المنظمة و«فتح» كان الطاغي على كافة المحطات النضالية في تاريخ الصراع العربي الصهيوني. ومن الضرورة بمكان أن ننبه إلى أن التاريخ النضالي لفلسطين سيبقى ملكًا للشعب الفلسطيني بكافة أطيافه ومذاهبه السياسية، وليس حكرًا على طرف أو حزب معين مهما كان موقعه في السلطة أو خارجها.

على الرغم من كل شيء، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذا المتحف يستحق أن يزار، ففيه من التاريخ الفلسطيني ما هو جدير باهتمام كافة الأجيال، سواء ممن عاصروا الأحداث وعايشوها أو ممن سمعوا عنها مما يتردد في الذاكرة الشعبية لنضال شعبنا العربي الفلسطيني. في المتحف الكثير مما قد تتعلمه الأجيال، ويكون حافزًا لهم ليكملوا مشوار آبائهم وأجدادهم من أجل الهدف الذي سعوا اليه ونسعى إليه جميعًا، ألا وهو تحرير فلسطين التاريخية من الصهيونية وما ارتكبته من مجازر في حق شعبنا الباسل.

بعد زيارتي للمتحف، رأيت أنه من الضرورة بمكان أن أضع بين يدي القارئ دراسة متواضعة حاولت فيها أن أسلط الضوء على مراحل تطور الحياة السياسية والحزبية في فلسطين، منذ زمن الانتداب البريطاني إلى يومنا الحالي، لنؤمد أن التاريخ الفلسطيني هو ملك كافة الفلسطينيين بكافة فصائلهم وأطيافهم السياسية كما ذكرنا، وليس حكرًا او ملكًا لأحد،

ولهذا فإن الواجب يقتضي أن نتطرق لهذا التاريخ السياسي والحزبي، وهو ما تجدونه بين دفتي هذا الكتاب.

• الجولة الرابعة: مدينة أريحا

مررت بمدينة أريحا في اليوم الأول عند وصولنا إلى فلسطين، فالاستراحة كما ذكرت سابقًا هي النقطة الحدودية للسلطة الوطنية الفلسطينية، وتقع في مدينة أريحا. كما أن أهمية مدينة أريحا حاليًّا تكمن في الاتفاقية التي سميت باسمها (غزة – أريحا) أولًا ضمن معاهدة السلام واتفاقية أوسلو. كنت أود أن أرى حقيقة التغيير الذي طرأ على المدينة بعد مجيء السلطة الوطنية الفلسطينية واتخاذها من مدينة أريحا مرتكزًا اوليًّا من ضمن اتفاقية السلام مع مدينة غزة.

في الطريق إليها بدأنا الهبوط تدريجيًّا نحو المدينة بينما درجات الحرارة ترتفع بدورها. عندما وصلنا كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا وكانت الشمس حارقة.

إن مدينة أريحا من المدن القديمة في التاريخ، التي يجب الوقوف عندها، فهي لا تقل أهمية عن أي من المدن القديمة في العالم بما في ذلك روما، دمشق، القاهرة، أو حتى القدس. فهي مدينة كنعانية قديمة يعدها الخبراء الأثريون من أقدم المدن في العالم على الإطلاق. يرجع تاريخها

إلى العصر الحجري (10,000-11,000) قبل الميلاد[1]. تقع مدينة أريحا على بعد 16 كيلومترًا عن البحر الميت، وتعتبر أخفض منطقة في العالم، كما تعرف أيضًا باسم «مدينة القمر».

أصل تسمية مدينة أريحا يعود إلى أصل سامي. وأريحا عند الكنعانيين تعني القمر، والكلمة مشتقة من فعل (يرحو) أو (اليرح) بلغة جنوبي الجزيرة العربية التي تعني شهر أو قمر. و(أريحا) في السريانية معناها الرائحة أو الأريج. وصفها البغدادي في معجم البلدان فقال: أريحا بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة والحاء المهملة أو بالحاء المعجمة، هي مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن والشام، سميت كذلك نسبة إلى أريحا بن مالك بن أرنخشد بن سام بن نوح، وهذا يدل على أن أصل التسمية سامي الأصل[2].

مرت على مدينة أريحا الكثير من الحضارات القديمة، هاجمها الهكسوس ما بين (1750-1600) ق. م واتخذوها قاعدة لهم، وكانت أول مدينة كنعانية تهاجم من قبل بني إسرائيل على يد يوشع بن نون سنة 1188 ق. م، وأحرق المدينة وأهلك من فيها. وفي عصر القضاة (1170-1030) ق. م، قام المؤابيون بإخراج اليهود بقيادة الملك

(1) Ancient cities, The Archeology of urban life in the Ancient Near East, P. 18

(2) Schreiber 2003, after Ice age: a global human history 5000-20000 BC, p. 57

عجلون[1]. واتخذها الفرس مركزًا لهم في القرن السادس قبل الميلاد، وانتشرت بها المسيحية في عهد الإمبراطور قسطنطين وبنى بها أول دير في العام325 م. ثم خضعت لحكم الأمويين. ففي عام 659 أصبحت مقاطعة أريحا تحت حكم معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الخلافة الأموية. في تلك السنة، ضرب زلزال مدينة أريحا ودُمرت تقريبا بأكملها، إلى أن قام الخليفة العاشر من السلالة الأموية، هشام بن عبد الملك ببناء قصر فخم يسمى «قصر هشام» على بعد كيلو متر واحد شمال تل السلطان في عام 743، ومسجدين، وفناء فسيفسائي ومبانيَ أخرى تظهر في الرسومات التقريبية التي يخبرنا بها خبراء الآثار في أيامنا هذه.

هذا القصر كان قد دمر جزئيا بسبب الزلازل عام 747.

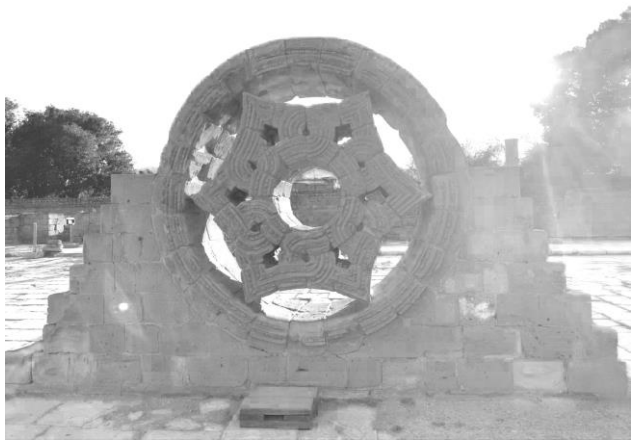

قصر هشام -أريحا

(1) تاريخ أريحا (نسخة محفوظة على موقع واي باك مشين).

ازدهرت المدينة حتى عام 1071، ثم غزاها الأتراك السلاجقة، وتلا ذلك الحملات الصليبية. في عام 1179، أعاد الصليبيون بناء دير القديس جيورجي من كوزيبا (Koziba) الذي يبعد ستة أميال عن مركز مدينة أريحا. كما تم بناء كنيستين ودير مخصص ليوحنا المعمدان. وينسب لهم إنتاج قصب السكر في المدينة[1].

في عام 1187، هزم صلاح الدين الأيوبي الصليبيين وطردهم من أريحا بعد انتصار قواته في معركة حطين.

خضعت أريحا لحكم العثمانيين خلال الأعوام (1517-1918)، وبعد انهيار الإمبراطورية العثمانية خضعت للانتداب البريطاني كباقي الأراضي الفلسطينية. ثم أصبحت تحت الحكم الهاشمي في مؤتمر أريحا الذي دعا له الملك عبد الله بن الحسين مؤسس المملكة الأردنية وأعلن نفسه بموجبه ملكًا على الأردن والضفة الغربية، وأصبح مواطنو الضفة الغربية مواطنين أردنيين، إلى أن احتلت دولة العدو الصهيوني باقي الأراضي الفلسطينية حتى النهر، لتصبح أريحا تحت حكم دولة الاحتلال، وبقيت كذلك إلى عام 1994، عندما تسلمتها السلطة الوطنية الفلسطينية كأول المدن الخاضعة لسلطتها وفقًا لاتفاقية أوسلو.

طبيعة الزراعة في أريحا مختلفة كليًّا عن باقي مناطق فلسطين، فهي تشتهر بزراعة المحاصيل التي تنمو في المناطق الحارة، وهي مناسبة

(1) المصدر السابق.

لزراعة الحمضيات والموز والنخيل والحبوب. وتبلغ مساحة الأراضي الزراعية فيها 137,500 دونم.

كانت الزيارة لمدينة أريحا خاطفة للتعرف على معالم المدينة وقصر هشام بدرجة رئيسية وبعض المعالم الأخرى كالأديرة القديمة. زرنا قصر هشام والمتحف الصغير المتواضع الموجود عند المدخل. في الواقع لم أر هناك شيئًا مميزًا، بل على العكس تمامًا، لم ينل إعجابي ما رأيت، فقد كان رسم الدخول لا يتناسب مع مستوى الدخل المادي للعوائل في فلسطين، ولم أشعر بأن وزارة السياحة الفلسطينية تبذل جهدًا مهمًّا لاستغلال هذا الموقع الأثري بشكل منظم، بل شعرت أن ما يبذلونه هو جهد متواضع جدًّا ولا يتناسب مع الآثار والكنوز الأثرية في فلسطين التاريخية، فقد تعاقبت على فلسطين الكثير من الحضارات الهامة من الكنعانيين مرورًا بالحضارة الرومانية والهلينستية والإسلامية، وغيرها الكثير من الحضارات التي أثرت التراب الفلسطيني وزينت أرضه بمعالمها وأبنيتها وأديرتها ومعابدها المختلفة. فأين تلك الآثار؟ وأين تلك الحضارات التي يجب أن تذكر للتنبيه باستمرار على أن هذا الأرض هي عربية كانت ولا تزال. على العكس مما يسوّق له الجهاز الإعلامي الصهيوني في محاولاته المستمرة لطمس التاريخ الحقيقي لفلسطين، وإعطاء الصبغة الصهيونية عليه لنصدق بأن هذه الأرض هي أرض الميعاد بحسب الميثولوجيا الصهيونية المخدومة بالديانة اليهودية. في المقابل فإن الأماكن الدينية في المدن الأخرى متاحة، ذلك أن السائح يزورها بلا رسوم

دخول، كالكنائس والمساجد مثلًا، فدخول الكنائس المسيحية ككنيسة المهد وكنيسة القيامة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وغيرها من أماكن العبادة مجاني تمامًا. مع العلم بأن هذه المقدسات موجودة في أماكن لا تخضع للسلطة الوطنية الفلسطينية، ما عدا كنيسة القيامة التي هي تحت رعاية البطريركيات المسيحية المختلفة. لكن هناك العديد من المتاجر للأشياء التذكارية والمرافق المصاحبة لها التي تشعرك بأهمية المكان والاهتمام به. أما في قصر هشام فلم نر حتى دليلًا سياحيًّا واحدًا.

كنيسة القيامة

بإمكان السلطة الوطنية الفلسطينية أن تستغل هذا المعلم الأثري العربي الهام، ليدر عليها دخلًا تستطيع من خلاله رصد الميزانيات للترميم والمزيد من الاستكشافات الأثرية التي يعتقد بأن هناك المزيد منها بعد.

• الجولة الخامسة: جامعة بيرزيت

بيرزيت هي من المدن الصغيرة أو البلدات الصغيرة التي تقع إلى الشمال من رام الله وترتفع بحدود 750 متراً عن سطح البحر، وتبلغ مساحة أراضي بيرزيت 16,000 دونم، لذلك تعتبر من أكبر البلدات في محيط منطقة رام الله والبيرة، يبلغ عدد سكان البلدة بحدود 5000 نسمة، نصفهم من طلاب الجامعة.

تشتهر البلدة بكثرة أشجار الزيتون وبوجود الجامعة التي سُميت على اسمها. وشعار الجامعة هو شجرة الزيتون أيضا[1].

لقد قمت بزيارة بيرزيت، وبالتحديد جامعتها بغية التعرف على إمكانيات هذه الجامعة التي تأسست عام 1924 كمدرسة ابتدائية، وتطورت إلى مدرسة إعدادية وثانوية، ومن ثم تحولت إلى كلية جامعية تدرس السنوات الأولى والثانية، إلى أن تحولت إلى كلية جامعية في الآداب والعلوم عام 1972 وبدأت تدريجيًّا التطور، وخرّجت أول فوج جامعي عام 1976، وتحول اسم الكلية إلى جامعة بيرزيت في العام الدراسي 1975-1976. جامعة بيرزيت هي صرح علمي فلسطيني جدير بالاهتمام ويحظى بشهرة واسعة محليًّا وعربيًّا[2].

(1) نشرة تعريفية عن جامعة بيرزيت من إصدارات الجامعة.

(2) المصدر السابق.

تبلغ المساحة الكلية للحرم الجامعي 800 دونم ما يقارب 70٪ منها مساحات خضراء. كما تحتوي الجامعة على 32 مبنى تضم تسع كليات في الآداب والعلوم والفنون والموسيقى والهندسة والتربية الرياضية وغيرها، كما تحتوي مكتبات ومسبحا ومتحفا وملاعب رياضية ومحطة معالجة لمياه الصرف الصحي[1].

بلغ عدد الطلبة المنتسبين للجامعة 14,506طالب وطالبة للعام الدراسي السابق. كنت قد سمعت الكثير عن هذه الجامعة وقابلت وعمل معي العديدون من خريجيها من المهندسين. وأسهمت في رفد المجتمع المحلي والعربي بالعديد من الكفاءات، فاستطاع خريجوها شق طريقهم بكل يسر وسهولة رغم صعوبة الأوضاع النضالية والحياتية لشعبنا الفلسطيني.

كنت سعيدًا بزيارة هذا الصرح العلمي وقابلت عددا من الموظفين الودودين الذين رافقونا في جولة في أرجاء الجامعة للتعرف على مرافقها وكلياتها، فكانت غاية في الروعة ولا تقل أهمية من حيث الشكل والمضمون عن أي من الجامعات العريقة في أي بلد ما. لا يوجد في بيرزيت أي شيء يذكر سوى هذا الصرح العلمي، وأهل البلدة يعتاشون على الزراعة، خاصة زراعة شجر الزيتون، وكذلك العائد من الإيجارات

(1) المصدر السابق.

الشهرية للبيوت التي يؤجرونها للطلاب الذين يدرسون في هذه الجامعة والقادمين من المدن الأخرى.

- **الجولة السادسة: بيت لحم، وبيت ساحور، وبيت جالا**

استيقظنا في الصباح الباكر، وتناولنا طعام الإفطار على عجلة من أمرنا فقد كنا نستعد للقاء يوم جديد ورحلة جديدة لثلاث مدن تداخل بنيانها وبدت كأنها مدينة واحدة. كانت أهمها ولا تزال مدينة بيت لحم، فهي من الأماكن التاريخية والسياحية المميزة في فلسطين.

تقع بيت لحم على بعد عشرة كيلومترات إلى الجنوب من القدس، ويبلغ عدد سكانها ما يقارب ثلاثين ألف نسمة. كما أنها ترتفع بمقدار 775 مترًا عن سطح البحر[1].

لقد بُنيت المدينة في الألفية الثانية قبل الميلاد من قِبل الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه المنطقة، ومر عليها العديد من الحضارات، وتعرضت للغزو الآشوري، والبابلي، والفارسي، والإغريقي، والروماني، والبيزنطي، ثم فتحها العرب المسلمون سنة 637 على يد عمر بن الخطاب، بعد أن ضمن لأهلها حرية العبادة والحفاظ على كنائسهم التي من ضمنها كنيسة المهد.

تعتبر كنيسة المهد من الكنائس الهامة في العالم المسيحي، وقد شيدت سنة 330م على يد الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر الذي شيدها فوق المغارة التي ولد فيها السيد المسيح. كان لهذا الإمبراطور الفضل الكبير على المسيحية والمسيحيين باعتناقه الديانة المسيحية، واعتمادها ديانة رسمية للرومان، وبالتالي أسهمت الإمبراطورية الرومانية في نشرها كديانة في المناطق التي كانت خاضعة لنفوذها، وهذه من حقائق التاريخ.

(1) Tourism in Bethlehem government, document saved in Palestinian National Information Center

كنيسة المهد

نُقلت السلطات المدنية والأمنية لمدينة بيت لحم إلى السلطة الوطنية الفلسطينية بعد مجيئها تطبيقًا لاتفاقية أوسلو، وبهذا أصبحت بيت لحم من ضمن أراضي السلطة الوطنية. فالطريق من الطيبة إلى بيت لحم يستغرق ساعة من الزمان أو أكثر بقليل نتيجة الطرق الالتفافية التي تحاذي المستعمرات ما بين الجبال. استغرقتنا الرحلة إلى بيت لحم أكثر من ساعة فقد كان المعبر المحاذي للعيزرية معبر الكونتينر (وهو الاسم الذي يطلقه عليه الفلسطينيون) مفتوحًا من دون مضايقات وإجراءات تفتيش، عدا ذلك قد يطول الوقت. كانت طريق الوصول إلى بيت لحم طويلة وشاقة، والطريق تمر بين الجبال التي يتخللها الكثير من

المنعطفات والمنحدرات الحادة. حينها أدركت مدى الصعوبة التي يعانيها شعبنا في حياته اليومية. تذكرت المرات السابقة التي زرت فيها المدينة في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي قبل الانتفاضتين الأولى والثانية، أو حتى إنشاء الجدار العازل الذي يفصل بين حدود الضفة الغربية ومناطق الاحتلال. في أثناء ذلك سألتني زوجتي ما بك صامتًا لا تشاركنا الحديث؟ فقلت:

«كانت الطريق في السابق إلى بيت لحم تستغرق عدة دقائق، فهي تبعد بمقدار ثمانية كيلومترات عن القدس. أما اليوم فنحن كالمسافرين. لا يستطيع أي مواطن أن يقدر الزمن المتوقع لتنقله من مكان لآخر فذاك مناط بالظروف».

وهنا أدركت مدى التغيير الذي طرأ على حياة الناس وحجم المعاناة مع دوام الاحتلال.

وصلنا في تلك الأثناء إلى بيت ساحور، وهي البلدة الملاصقة لبيت لحم تمامًا. فالمدينة القديمة تقع على ارتفاع 620 مترا عن سطح البحر، وتتدرج بالارتفاع من حقل الرعاة إلى مرتفعات بيت لحم[1].

تعتمد القاعدة الاقتصادية لمدينة بيت ساحور على الزراعة بشكل رئيسي، فالمساحة المزروعة تبلغ ما يقارب 6,945 دونما، منها 560 دونما لشجر الزيتون، وتتقاسم المساحة الباقية كل من أشجار العنب

(1) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) بيت ساحور.

واللوز مع الحبوب. إضافة إلى ذلك تعتمد البلدة على بعض الصناعات اليدوية السياحية كالحفر على خشب الزيتون، وصناعة التحف الفنية من الصدف التي تختص بها هذه البلدة دون غيرها من مدن فلسطين[1]. هذه إحدى الإحصائيات القديمة قبل دخول السلطة الوطنية الفلسطينية. أما الآن فحالها كحال باقي المدن والريف الفلسطيني في مسألة الزراعة. وسنأتي على ذكرها لاحقًا.

توجهنا في الحال لزيارة كنيسة حقل الرعاة، وهي تعتبر من أهم معالم البلدة. عدا عن ذلك فلا شيء يذكر.

كنيسة حقل الرعاة هي إحدى أقدم الكنائس في فلسطين، أقيمت على مغارة يعتقد أنها بنيت في عهد يوستنيايوس، وقد عثر فيها على قبور الرعاة.

تقع الكنيسة في بستان من الأشجار المعمرة، وحولها بعض محلات الحرف اليدوية، وخاصة المنحوتات والقطع الفنية التي نُقشت وحُفرت على خشب الزيتون، بالإضافة إلى العديد من المناظر التذكارية للكنائس الهامة في المدينة. بعدما أنهينا زيارة هذه المعالم تابعنا المسير إلى بيت لحم.

(1) المصدر السابق.

انتقلنا بعد زيارة كنيسة حقل الرعاة إلى قلب مدينة بيت لحم؛ إلى ساحة كنيسة المهد. عندما اقتربنا من الكنيسة ووقفنا في الساحة كان المنظر مهيبًا.

كنسية الرعاة-بيت جالا

قلت في نفسي، ها أنا أقف مرة أخرى أمام هذ الصرح العملاق، هذه الكنيسة التي زرتها مع أختي في نهاية سبعينيات القرن الماضي، لكنني لم أعد أتذكر منها شيئًا سوى البوابة الرئيسية التي لا يتعدى ارتفاعها المتر.

لقد لفت انتباهي الترميم الحديث الذي رممت به جدران هذه الكاتدرائية من الخارج، بالفعل استطاع المرممون ترميم الجدران الخارجية والحفاظ على عراقتها التاريخية بشكل تقني بارع. يُظهر هذا

الترميم الكنيسة بثوبها القديم والنظيف الذي تدب فيه الحياة. أما البوابة الرئيسية للكنيسة فمن أكثر الأشياء المهمة التي تلفت انتباه أي زائر يزورها. فهذه البوابة لا يزيد ارتفاعها على المتر بحيث لا يدخلها الغزاة وهم على أحصنتهم حفاظًا على الكنيسة وقدسية المكان.

دخلنا إلى كنيسة المهد ووجدنا على الجدار عند مدخل الكنيسة الصورة التي أنقذت المهد من الهدم، ذلك أن الكنيسة تعرضت للهدم من قبل الفرس، لكنهم عندما هدموا جزءا منها شاهدوا صورة تمثل المجوس باللباس الفارسي وهم يقدمون الهدايا للطفل ذهبا ولبانا ومرا، وحال مشاهدتهم الرسم كفوا عن متابعة هدمها فهذه الصورة أنقذت المهد من الهدم. ونزلنا إلى المغارة وشاهدنا الآثار القديمة والفسيفساء وبعض الرسومات على جدران الكنيسة القديمة التي تعتبر من أقدم الكنائس في العالم، إذ يزروها السائحون من كافة أصقاع الأرض لأهميتها التاريخية والدينية، فهذه الكنيسة ذات قيمة تاريخية كبيرة بتفاصيلها المعمارية القديمة من الداخل والخارج.

بعد الانتهاء من جولتنا في الكنيسة، انتقلنا لزيارة كنيسة أثرية أخرى تقع خلف كنيسة المهد على بعد عدة مئات من الأمتار، هي مغارة الحليب، وهي أيضًا من الكنائس الهامة التاريخية لدى المسيحيين، إذ تقول الرواية بحسب الديانة المسيحية بأن مريم العذراء لجأت إليها مع خطيبها يوسف النجار لترضع ابنها خلال هربهما إلى مصر من بطش القيصر بيلاطس البنطي (Pontius Pilates).

كانت مدينة بيت لحم من المدن الفلسطينية المشرقة في التاريخ الفلسطيني قبل توالي سلسلة الهجرات المتكررة لسكان المدينة في زمن الاحتلالين الإنجليزي والصهيوني. هاجر الكثير من سكانها منذ بدايات القرن العشرين، وتحديدًا إلى دول أمريكا اللاتينية: السلفادور، والتشيلي، وهندوراس، وغواتيمالا، وغيرها من الدول اللاتينية بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فالجاليات الفلسطينية في تلك الدول تعد جاليات كبيرة إلى حد ما في تعدادها. ففي التشيلي هناك ما يقارب نصف مليون فلسطيني، لذلك لا نستغرب عندما نسمع أو نشاهد رئيسًا منتخبًا بشكل ديمقراطي في تلك الدول من أصل عربي وبالتحديد من بيت لحم. فقد شارك الفلسطينيون في الحياة السياسية في تلك الدول وتبوأ العديد منهم مناصب حساسة، فعلى سبيل المثال كان شفيق حنضل ابن بيت لحم سكرتيرًا عامًّا للحزب الشيوعي في السلفادور، ومن ثم منسقًا عامًّا لجبهة الفرابوندو مارتي للتحرير الوطني، ومرشح رئاسة لمرتين خسر إحداهما ضد المرشح اليميني العربي الذي فاز برئاسة السلفادور أنطونيو السقا عام 2004، وهو أيضًا من بيت لحم. كذلك الحال الآن، فالرئيس الحالي للسلفادور هو اليميني نجيب بوكيلة، وهو فلسطيني الأصل تعود جذوره إلى بيت لحم أيضًا. وشهدت هندوراس كذلك رئيسًا فلسطينيًّا وهو روبيرتو فقوسة عام 1998، وهناك أنطونيو التلحمي صاحب التاريخ النضالي الحافل في فلسطين إلى جانب عبدالقادر الحسيني، وكان ضمن النواة الأولى للثورة الكوبية التي رافقت كاسترو وجيفارا على متن

القارب «غرامنا» من المكسيك إلى كوبا، وهو الذي ظل مؤمنًا بالنضال الثوري ويأمل في الانخراط بالعمل الفدائي الفلسطيني الذي يعتبره الطريق الوحيد نحو دحر الاحتلال[1]. هذا عدا المجالات الأخرى التي أبدع فيها العرب من الفلسطينيين وغيرهم من الدول العربية الشقيقة من لبنان وسورية والأردن في الفن والرياضة والسياسة وغيرها. وهناك فريق رياضي في التشيلي لكرة القدم هو «ديبورتيفو بالستينوا» كان قد اسسه المهاجرون الفلسطينيون عام 1920 وهو من فرق الدرجة الممتازة.

كانت الغالبية العظمى من السكان القاطنين في بيت لحم من المسيحيين مع أقلية مسلمة، على العكس تمامًا هذه الأيام التي انقلبت فيها الموازين لتصبح الأكثرية من القاطنين من المسلمين مع وجود الأقلية المسيحية، نتيجة الهجرة المستمرة وسياسات الترانسفير الصهيونية من أجل تفريغ الأرض من السكان العرب، سواء من المسيحيين أو المسلمين. الطابع المسيحي هو الغالب على بيت لحم ربما نتيجة لكنائسها التاريخية الهامة، وكثرة السياح الذين يقومون بزيارتها على مدار العام.

شوارع بيت لحم القديمة المحيطة بساحة كنيسة المهد تعج بالمحال التجارية التي تبيع التذكارات المختلفة التي تمتاز بها مدينة بيت لحم. فأغلب سكان المدينة يعتاشون على الدخل القادم من الحركة السياحية.

(1) كتاب أنطونيو التلحمي، ص10.

وهذه الأماكن المقدسة تُدرُّ على السلطة مبلغًا من المال لا بأس به، ويعتبر رافدًا للاقتصاد الوطني وخزينة الدولة.

انتقلنا بعدها في جولة بالمركبة في أرجاء المدينة، وقادتنا الطريق إلى أن وجدنا أنفسنا في مدينة صغيرة محاذية لها هي مدينة بيت جالا.

تمتاز هذه المدينة بصغر حجمها مقارنة ببيت لحم المجاورة لها. تبعد بيت جالا مسافة 2 كيلومتر عن بيت لحم، ويفصل الطريق المؤدي من القدس إلى الخليل بينهما، ومع امتداد العمران أصبحت البلدتان متلاصقتين تمامًا. ترتفع بيت جالا 825 مترًا عن سطح البحر، لذلك يمتاز جوها بأنه معتدل خلال الصيف وبارد خلال فصل الشتاء[1].

السكان في بيت جالا هم من المسيحيين على العموم، ولا يتجاوز عدد سكانها 12000 نسمة. اعتمدت المدينة بسبب موقعها الجبلي على زراعة الأشجار المثمرة، إذ تشكل أشجار الزيتون غابة متصلة حول المدينة الجبلية، كما أن هناك بعض الأشجار التي تناسب الطبيعة الجبلية كالتوت والمشمش والعنب، بينما لا تشكل زراعة الحبوب نسبة تذكر لوعورة الأرض. وبالنتيجة، فبيت جالا لا تعتمد على الزراعة كدخل رئيسي، لكن هناك بعض الصناعات الحرفية كالحفر على خشب الزيتون والمطرزات والحياكة والغزل والنسيج وبعض الصناعات الأخرى للاستهلاك المحلي والمبيع للسواح الأجانب.

(1) الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) بيت جالا.

بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية وقلة الموارد، خاصة بعد الاحتلال الإسرائيلي عام 1948 لفلسطين وزيادة عدد السكان، اضطر الأهالي للهجرة إلى خارج فلسطين. فحالها حال غيرها من المناطق الأخرى المحيطة بها والتي نقص تعداد سكانها بسبب الهجرة.

للهجرة بعض الإيجابيات والكثير من السلبيات، من الإيجابيات المد العمراني وتشييد المباني المنفردة والفلل للبعض من المغتربين أو لأهاليهم، وهو استمرارية للحياة والوجود الفلسطيني على هذه البقعة من فلسطين للتأكيد على هويتها الفلسطينية العربية، أما السلبيات فهي أكثر، وهي تفريغ الأرض من السكان وإمكانية اللاعودة خاصة للأجيال الحديثة، التي غالبًا ما تندمج مع المجتمعات المحلية التي تهاجر اليها وتصبح جزءًا لا يتجزأ منها، وبهذا تصعب العودة مرة أخرى. وهذا يخدم سلطات الاحتلال مرحليًّا.

كما أن الخطر الصهيوني في تهويد الأراضي لإقامة الثكنات العسكرية قائم، خاصة في بيت جالا التي تقع في المنتصف بين مستعمرتين صهيونيتين شمال وغرب بيت جالا، فتحُدّان من نموها العمراني وامتدادها. فالاحتلال يريد باستمرار السيطرة على الأماكن المرتفعة.

كانت رحلتنا إلى بيت جالا سريعة فاقتصرت على رؤية معالم المدينة في جولة بالسيارة حولها، ولعل أهم المعالم التي اشتهرت بها دير كريمزان في شمال المدينة، ويتبع للآباء السالزيان الذين جاؤوا من إيطاليا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، فقد قاموا بشراء الأرض التي يقع عليها الدير

حاليًا. وفي عام 1842 بُني دير في وسط الطبيعة الجميلة. أما في العام 1885 فأُنشئ في الدّير مصنع للنبيذ الذي يعتبر من أقدم المصانع في المنطقة. بالإضافة إلى ذلك يحتوي الدّير على مكتبة لاهوتية قيّمة ومركزٍ ثقافيٍّ للشباب. وتتميّز أراضي دير كريمزان بأنها غنيّة في مجال زراعة أشجار الزيتون والعنب وأشجار المشمش واللوز[1]. ومن الجدير بالذكر أن هذا الدير بدوره يعاني بسبب جدار الفصل العنصري في وادي الكريمزان وخطر تهويده قائم دائمًا.

في هذا المكان المرتفع، كانت القدس بهية بإطلالتها من الجبل المقابل، وكان المنظر بديعًا جدًّا بخضرته الدائمة وموقعه الجغرافي الجميل.

كانت هذه الجولة مميزة جدًّا، وذلك لأن طبيعة الحياة في الضفة الغربية صعبة، فما تستطيع أن تنجزه في الأوقات السلمية أكثر منه مقارنة بالأوقات التي تكون فيها الطرق الرئيسية مغلقة، فيضطر السكان لسلوك الطرق الالتفافية البديلة، فلا يتمتع السكان بالأريحية في معيشتهم اليومية. وهذا ينعكس بشكل عام على كافة مناحي الحياة، ويؤدي إلى المزيد من الإحباط، خاصة لدى الأجيال الواعدة التي ترى أن لا مستقبل لها في فلسطين، لذلك يبقى هاجس الهجرة حاضرًا دائمًا، خاصة لدى الأجيال

(1) مدونة فلسطين في مدينة بيت جالا Palestinian Blog.

الشابة. وهذا هو ما تسعى إليه دولة الاحتلال؛ تشريد السكان وإفراغ الأرض بكافة الوسائل الممكنة من أجل تهويدها.

فحياة المدن في الضفة الغربية التابعة للسلطة الوطنية لا تختلف كثيرًا عن الحياة في القرى الفلسطينية، فالبشر هم نفس البشر، لديهم نفس المعاناة اليومية باختلاف المواقع والأدوار والمناصب والمصالح، فلا تتمتع المدن الفلسطينية بصخب الحياة كمثيلاتها من المدن العربية الأخرى في الدول المجاورة نتيجة لظروف الاحتلال البغيض، كما أن المدن الفلسطينية غير مكتظة بالسكان، فالتعداد الفلسطيني للسكان في هذه المدن هو أقل منه في الريف، وقد يعود السبب في ذلك إلى طبيعة تطور الحياة في السنوات الخمسين الماضية، فقد شهدت فلسطين في تطورها نسقًا خاصًّا بها، فالحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كانت مغايرة تمامًا لدول الجوار، لأنها كانت ولا تزال دولة محتلة منذ ما يزيد على خمسمائة عام؛ فقد احتلها العثمانيون سنة 1517 بعد معركة مرج دابق وهزيمة المماليك، وبقيت كذلك حتى انهيار الإمبراطورية العثمانية عام 1917، فوقعت مجددًا تحت الانتداب البريطاني حين تقاسم للمشرق العربي مع الإمبراطورية الفرنسية، وما تلا ذلك من أحداث أهمها وعد بلفور المشؤوم، لتصبح فلسطين مرة أخرى تحت احتلال أشد ضراوة مما سبقه خلال الاحتلالين السابقين. إذ ما زال شعبنا العربي الفلسطيني يناضل في سبيل تحقيق حلمه في الاستقلال وبناء الوطن المستقل كغيره من الشعوب التي تحررت من نير الاحتلالات المباشرة

وواصلت مسيرتها في التقدم والرقي. وهذا انعكس لمسار التطور العام في المجتمع في كافة مناحي الحياة. أما في فلسطين فيشكل الاحتلال عائقا أمام تطور البلاد.

تخللت السنوات الثلاثين الماضية العديد من الأحداث المفصلية التي عصفت بالحياة السياسية العالمية، ونالت فلسطين حصة الأسد من تلك الأحداث خاصة ما يتعلق بالشرق الأوسط الذي تعتبر فلسطين أحد مكوناته الرئيسية. وكانت القدس ولا تزال مدار الجدل في كافة الأزمان؛ لمكانتها الدينية أولًا، ولأهميتها التاريخية على صعيد آخر. وأولئك الذين لم يحظوا بزيارة القدس لم يروا شيئًا على قدر من الأهمية والجمال، فالقدس متميزة ببهائها، وعلوها وعبق التاريخ الذي يتحدث عنها ويسطر مجدها، فيشعر الزائر بقدسيتها وتاريخها القديم وأسوارها المنيعة الصامدة أمام أي اختراق لها، فحجارتها تنطق وتتحدث عن تاريخها الحافل، تصرخ ألمها وتشمخ أمام صمودها على مر الأزمان.

سنتحدث مليًّا عن القدس في الصفحات القادمة، وهي الجولة الأهم لاستكشاف فلسطين على الصعيد العام والشخصي.

- **الجولة السابعة: مدينة القدس**

مدينه القدس العربية هي رمز المشرق العربي منذ مئات السنين، فكم من مرة تعرضت للغزو والنهب والدمار، لكنها ما زالت تقاوم وأبت أن تستسلم يومًا للطغاة، فما هم إلا عابرو سبيل، أما هي فباقية.

للقدس سحرها الذي لا يقاوم، فتاريخها العريق صد كل اعتداء غاشم وقع عليها وبقيت شامخة، عظيمة، وقد نظمت فيها أشعار كثيرة، وخلاصة القول أن عشقها تتوارثه الأجيال على مر العصور والأزمان. والأدب العربي وحتى العالمي جسدها في أعمال خالدة، على سبيل المثال، أستشهد بشعر أحد الشعراء الشبان من هذا الجيل إذ يتألق في الحديث عن عظمة المدينة وشموخها، فيقول الشاعر تميم البرغوثي في إحدى قصائده:

والقدس تعرف نفسها،
اسأل هناك الخلق يدللك الجميع
فكل شيء في المدينة
ذو لسان، حين تسأله، يبين
في القدس، رغم تتابع النكبات، ريح براءة في الجو، ريح طفولة،
فترى الحمام يطير يعلن دولة في الريح بين رصاصتين
...

في القدس تنتظم القبور، كأنهن سطور تاريخ المدينة والكتاب ترابها
الكل مروا من هنا
فالقدس تقبل من أتاها كافرا أو مؤمنا
امرر بها واقرأ شواهدها بكل لغات أهل الأرض
فيها الزنج والإفرنج والقفجاق والصقلاب والبشناق
والتاتار والأتراك، أهل الله والهلّاك، والفقراء والملّاك، والفجار والنساك،
فيها كل من وطئ الثرى
كانوا الهوامش في الكتاب فأصبحوا نص المدينة قبلنا
أتراها ضاقت علينا وحدنا
يا كاتب التاريخ ماذا جد فاستثنيتنا
يا شيخ فلتعد الكتابة والقراءة مرة أخرى،
أراك لحنت[1]

القدس هي أكبر مدن فلسطين التاريخية مساحة، وأهمها تاريخيًّا ودينيًّا واقتصاديًّا. تبلغ مساحتها 125,156 كيلومترا مربع، وارتفاعها نحو754 مترًا عن سطح البحر. ويبلغ تعداد سكانها ما يقارب 933,113

(1) قصيدة إلا أنت (في القدس)، شعر تميم البرغوثي، منشورة على موقع فلسطين في الذاكرة/ القدس الشريف.

نسمة (هذا يتضمن عدد السكان من العرب واليهود في القدس الشرقية والغربية)[1].

تاريخيًا تعرضت القدس للتدمير مرتين، وللحصار نحو 23 مرة، وهوجمت 53 مرة، وتم غزوها وفقدانها نحو 44 مرة[2]. لقد شهدت القدس العديد من الحضارات منذ العهد الكنعاني، فالرومان والفرس والصليبيون والأيوبيون والمماليك تعاقبوا على الاستيلاء على المدينة وتلاهم الحكم العثماني الذي استمر قرابة 400 عام، لتقع مجددًا تحت الاحتلال البريطاني الذي كان بدوره قبل أن يخرج من فلسطين قد أعطى اليهود حق الهجرة إلى فلسطين وتأسيس دولة لهم على أراضيها، بناءً على الوعد الذي قطعه بلفور وزير خارجية بريطانيا عام 1916 لليهود، لتقع فلسطين مجددًا ضحيةً للتآمر الدولي من بريطانيا وأعوانها، بذلك لم تخرج بريطانيا من الأراضي العربية إلا بعد أن ضمنت تشكيل دولة الكيان الصهيوني التي أُعلنت عام 1948. هكذا لم تحظ فلسطين بالاستقلال منذ السنوات الخمسمائة الماضية على الأقل ولا ليوم واحد، منذ معركة مرج دابق كما ذكرنا سابقًا إلى يومنا هذا.

سميت مدينة القدس بالعديد من الأسماء:

(1) دائرة الإحصاءات المركزية- القدس (رقم تقريبي لعدد اليهود والعرب).

(2) Time Line for the history of Jerusalem.

أول اسم للمدينة كان «أور سالم» أو مدينة السلام، وظهر في رسائل تل العمارنة، وذلك في الألفية الثانية قبل الميلاد. وهذا الاسم جاء نسبة إلى الإله سالم الكنعاني حامي المدينة[1].

ثم اتخذت اسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين المتفرعين من الكنعانيين. وقد سماها ملكهم ملكي الصادق وهو المحب للسلام بهذا الاسم أور سالم أو أورشليم[2].

وعند سيطرة الإمبراطورية الرومانية على المنطقة، أُطلق عليها اسم مستعمرة «إيلياء»، نسبة إلى الاسم اللاتيني (Colonia Aelia Capitolina)[3].

ثم أطلق عليها اسم «بيت المقدس» أو «القدس الشريف» نظرًا لقدسية المدينة بالنسبة للديانات الإبراهيمية الثلاث.

تشير الإحصائيات إلى أن دور العبادة داخل أسوار القدس تبلغ 158 كنيسة و73 مسجدًا.

تلعب القدس دورًا هامًّا على الصعيد القومي العربي عمومًا، والوطني الفلسطيني على وجه الخصوص. فمدينة القدس تعني الكثير للعرب

(1) تاريخ القدس القديم في الفترة الكنعانية 1000–1800 قبل الميلاد، موقع باك مشين.

(2) مجلة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، عدد 139، 6 أكتوبر 2006.

(3) Bosworth Clifford Edmund 2007, Historic Cities of the Islamic world, P. 225

المسلمين والمسيحيين، فهي ما زالت تتصدر أولوية المدن ذات الاهتمام العالمي من حيث القِدم التاريخي والإرث الحضاري، وهي المدينة الأكثر في التاريخ الإنساني تصارعا عليها من قِبل الاستعمارات المختلفة لضمّها إلى أراضيها، إذ وقعت تحت حماية كثير من الدول ابتداءً من الرومان القدامى إلى دولة الكيان الصهيوني في عصرنا الحالي.

كان لي الشرف أن أكون من مواليد هذه المدينة، وذلك قبل عام واحد من الاحتلال الصهيوني لها عام 1967، حين تم ضمّها إلى الأراضي الفلسطينية التي اغتصبها وأسس دولته على أراضيها عام 1948. كنت قد أبصرت النور في يوم السابع عشر من شهر آذار عام 1966 في البلدة القديمة في الزاوية النقشبندية على بعد عدة أمتار من المسجد الأقصى. والدي كان مدرّسًا، ووالدتي كانت مديرة التمريض في مستشفى الهلال الأحمر في القدس. بعد عام من مولدي جاءت حرب الـ 67 أو ما تعودنا أن نطلق عليها سنة النكسة، التي بنتيجتها تم ضم المدينة المقدسة والضفة الغربية بكاملها لدولة الكيان الصهيوني. عشت في المدينة مع والدتي وإخوتي حتى نهاية عام 1969 حين اضطرت والدتي للانتقال إلى الأردن للحاق بوالدي بعد إبعاده.

لقد زرت مدينة القدس مرارًا على مدار سنوات السبعينيات من القرن الماضي مع أمي حتى عام 1977، وهو العام الذي أقدمت فيه سلطات الاحتلال على إبعادها أيضًا وعدم السماح لها مجددًا بزيارة الأراضي المحتلة. زرتها بعد ذلك عام 1979 مع أختي عفاف، وفي العام 1982 قمت بزيارتها وحدي. بعد ذلك التاريخ لم تتسن لي زيارتها حتى صيف عام 2019 حين دخلتها مجددًا بجواز سفر أجنبي كسائح، وما أقسى هذا الشعور! ألا ترى بديلًا آخر لزيارة بلدك ومسقط رأسك إلا كسائح أجنبي وهي بلدك الأم. شعور لا يوصف بما فيه من المرارة والألم الذي يعتصر القلب، وأنت ترى بلدك المستَعمر يستقبلك كأجنبي وأنت مواطن أصلي ومن مواليد هذا البلد، وتحديدًا مدينة القدس أهم مدن هذا الوطن الغالي.

لقد غادرت القدس طفلًا، وزرتها في سنوات الصبا، وها أنا أزورها لأول مرة في حياتي في خريف العمر، ولعلها المرة الأولى التي تسنى لي رؤيتها بمنظار آخر في محاولة لإعادة استكشاف المكان، فلمست التغيير الهائل الذي طال البشر والحجر.

جال بخاطري الماضي والحاضر في آن واحد، وأصبح ذهني متيقظًا منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها مدينة القدس، وبدأ شريط من الذكريات يداعب عقلي بشكل عشوائي، يتنقل بي بين ذكريات من الماضي على شكل ومضات سريعة ومتحركة ومشاهد في سنوات الطفولة ما زلت أذكرها بتفاصيلها الدقيقة، مرت في مخيلتي بسرعة البرق على الرغم من السنوات الطويلة التي كانت تفصلنا عن تلك الأحداث، وتخيّل لي أنها قد مرت بالأمس القريب، فلا قيمة للزمن عند استرجاع الماضي في المخيلة، فتواصلت الأحداث بين الماضي والحاضر، بين ما مر من الزمن وما اعترى الحاضر من تغيُّر أبصرته عيناي عبر مشاهد كثيرة متلاحقة أصابتني بذهول للوهلة الأولى. أُقر بأن الأمر لم يسعدني كثيرًا، فشعرت نفسي تائهًا، لكني عدت وقلت في نفسي إن الواقع الحاضر يطغى على الذكريات التائهة التي انقضت، فنحن نعيش في عالم متحرك بشكل مستمر، لذلك كان دماغ البشر قادرا على التكيف مع المشاهد الجديدة كأمر واقع، أما الماضي فقد انتهى ولا يمكن استرجاعه إلا من خلال الذاكرة الحسية. في حين تبقى المقارنة مستمرة بين الأمس واليوم، علينا فهم التاريخ الذي مضى لاستيعاب الحاضر الذي حل بنا، سواء ما طرأ

على المكان أو سلوكيات البشر ووجودهم ومجمل التغيرات والأحداث السياسية المتراكمة التي عصفت بنا على مدار العقود الأربعة الماضية في ما يخص القضية الفلسطينية: الاحتلال، الوجود الفلسطيني، الحدود، الدولة الفلسطينية، تهويد القدس، اللاجئين وحق العودة، وغيرها من القضايا التي ما زالت عالقة بدون حلول مناسبة لمصلحة الفلسطينيين. إنه صراع مرير يخوضه شعبنا الفلسطيني من أجل البقاء والوجود من دون مساومة أو تفريط، فنحن أصحاب حق كشعب فلسطيني، فالأرض لنا والقدس لنا ولن نتنازل عن شبر من ثراها مهما طال الزمن.

في القدس ذكريات كثيرة أستعيدها، بعضها يتمحور حول شخصيات مقدسية من المناضلين الذين عرفتهم منذ صغري، من الرفاق الذين انتقلوا إلى عمان نتيجة الإبعاد، منهم الرفيق المرحوم عبد الله السرياني ابن مأدبا الذي كان يقطن مدينة القدس إبان الاحتلال وعاد مع العائدين بعد اتفاقية أوسلو، والرفيق الكاتب والأديب محمود شقير الذي عرفته في الأردن بعد إبعاده وأهدى لي عددا من إصداراته من أدب قصص الأطفال، ثم عاد إلى القدس وما زال يسكنها حتى الآن وتربطني به علاقة طيبة لغاية اللحظة. بالإضافة إلى الرفيق نعيم الأشهب (أبو بشار) رفيق والدي في النضال في القدس. لقد واظبت سلطات الاحتلال في بداية الاحتلال على احتجاز والدي والرفيق نعيم الأشهب قبل أي مناسبة وطنية يتوقعون فيها نشاطا سياسيا للشيوعيين، واستمر ذلك خلال العام الذي تلا الاحتلال ما بين السجن والإفراج، إلى أن انتهى بالاعتقال ومن

ثم الإبعاد. فالشيوعيون هم ملح الأرض الذين وهبوا حياتهم وعشقوا وطنهم، وكان نضالهم الوطني وقفة عز كانوا أبطالها منذ البدايات. وأنا كلي فخر بنضال والدي ورفاقه وتاريخهم المنير والساطع في التاريخين الوطنيين الفلسطيني والأردني.

كان هناك الكثير من العلاقات التي ربطتها أواصر صداقة مع عائلتي، على سبيل المثال عائلة القولا غاصي والبخاري وغيرهم، وما زال بعضهم يسكنون القدس حتى يومنا هذا. بالإضافة إلى بعض الأقارب الذين سكنوا القدس ومعظمهم رحل عن دنيانا إلى الأمجاد السماوية. أذكر جولاتنا في البلدة القديمة، في حي المصرارة والشيخ جراح، في بيت حنينا وجبل الطور.

كانت زيارتي هذه المرة لمدينة القدس مختلفة تمامًا، فكنت بصحبة عائلتي، وأقصد زوجتي وابني، وصاحبَتْنا أخت زوجتي وابناها، لقد وصلنا في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا. تهيأت منذ الصباح ألّا أتناول طعام الإفطار من أجل تناول كعك القدس التي تشتهر به المدينة، وما إن شاهدت أول بائع كعك حتى سرت باتجاهه واشتريت الكعك وباشرنا بالتهامه على الفور. وسرنا نحث الخطى باتجاه باب العمود.

ما إن شاهدت باب العمود حتى وقفت أمامه بخشوع، هذا المنظر البديع الذي طالما تخيلت نفسي على مدار العقود الأربعة الماضية أقف أمامه. نعم أزفت هذه اللحظة، كنت أقف أنظر إلى الأسوار حتى ظننت لوهلة بأني أحلم. لكنه لم يكن حلمًا بل هو الحقيقة، نعم أنا في القدس قلت لنفسي.

أمعنت النظر في أسوارها وقلت لابني يزن:

- نحن الآن أمام أسوار عظيمة كانت منيعة أمام هجمات استعمارية متعددة عبر التاريخ.

كان المنظر بديعًا، كنت ممتلئا غبطة، لم يراودني شعور مماثل عند زيارة أي مدينة أخرى.

كنت متحفزًا لنزول الدرج والسير باتجاه الباب لعبوره من أجل الدخول إلى قلب المدينة العتيقة التي طالما تراءت لي في مخيلتي وكنت أتوق كي أراها من جديد. وعقدت العزم وأخذت تسابقني خطاي ومعي ابني يزن وأولاد خالته، أما زوجتي وأختها فلا تكادان تلحقان بنا، وكانتا تراقباننني في دهشة، فقد بادرت زوجتي ونادتني لتسألني لمَ هذه العجلة فنحن داخل

اسوار مدينة القدس ونستطيع أن نتسكع في حواريها طوال النهار، لكني لم أكن أصغي إليها وكنت شارد الذهن وأحث الخطى، وكان جل تفكيري الوصول إلى البيت الذي أبصرت فيه عيناي النور. كانت زوجتي معتادة أن تسلك طريقها من خان الزيت إلى وسط المدينة للذهاب إلى كنيسة القيامة. أما أنا فقد سلكت الطريق الموازي لخان الزيت وهما خلفي لا تعرفان إلى أين أتجه أنا. تبعتاني بصمت إلى أن وصلنا إلى شارع الآلام، فمشينا فيه، ومررنا بكنيسة أثرية قديمة أظنها حبس المسيح. تابعت المسير إلى منتصف الشارع فتوقفت فجأة أمام باب صغير مكتوب عليه الزاوية النقشبندية وبجانبه تكية أو جامع صغير. توقفت أمام باب الزاوية المدهون باللون الأخضر، وبلمح البصر شاهدت زرَّي مفاتيح الأجراس، أحدهما كان لمؤسسة تجارية يبدو أنها مستأجرة في هذا الوقف، والآخر يبدو بيتًا. جميعهم كانوا يراقبونني وعلى وجوههم نظرة فيها نوع من الحيرة. ما أن لمحت ذلك حتى قلت لهم:

- أنا ولدت هنا في هذا المكان، وأنوي الدخول إلى البيت الذي ولدت فيه.

وأمام دهشتهم لمست بأصبعي الجرس. حينها بادرت أخت زوجتي وقالت:

- ماذا لو كان من يسكن هنا من المستوطنين اليهود، لكن فات الأوان فقد قرعت الجرس وانتهينا.

ونحن في الانتظار جاء صوت عبر السماعة المثبتة تحت الجرس باللغة العربية، وكان صوت سيدة تستفسر مني ماذا أريد. فأخبرتها ومن دون مقدمات بأني ولدت في هذا البيت. وجئت مع عائلتي ورغبة جامحة بي كي أزور مكان ولادتي.

وسألتها بدوري عن صاحبة البيت حاليا، وهي السيدة وفاء البخاري المتبقية من العائلة، التي ما زالت تسكن في الزاوية وتحافظ عليها من الاستيطان الإسرائيلي. وعندما تأكدت السيدة من هويتنا بادرت بفتح الباب والسماح لنا بالدخول إلى داخل حرم الزاوية، فكنت أول من دخل وتبعني أفراد العائلة إلى أن وصلنا إلى الطبقة العلوية، وفي نهاية الدرج استقبلتنا سيدة في مقتبل العمر وأخبرتنا أن السيدة وفاء غير موجودة، فقد توجهت في صباح هذا اليوم إلى رام الله لإجراء بعض المعاملات الرسمية. فطلبنا منها رقم الهاتف الخلوي لوفاء وكلمناها أنا وزوجتي فأعربت عن أسفها لعدم وجودها ورجتنا أن نقوم بزيارتها مرة أخرى.

تجولت مع الأسرة في المكان، وصعدنا إلى السطح، وكانت مباني القدس تتألق أمامنا وتعانق السماء. كم هو جميل منظر القدس من علو. كنت أتمنى لو كانت وفاء موجودة، إذ كونها تكبرني بأعوام وتتذكر جيدا البيت الذي ولدت فيه، فإنها ستكون خير من يصحبنا في جولة تعريفية بالمكان وما طرأ عليه من تغيير. لكن السيدة كانت لطيفة وقامت بواجب الضيافة، فقد أصرت أن ندخل بيتها للاستراحة وشرب المياه

والمرطبات، فوافقنا لإلحاحها وكرم ضيافتها، ثم شكرناها واستأذنّا بالانصراف.

عندما خرجنا إلى شارع طريق الآلام مجددًا سرنا باتجاه باب الأسباط، وكان على يميننا زقاق يقود إلى باب الغوانمة، وهو أحد أبواب المسجد الأقصى. من هذا الباب بدأنا جولة جديدة في رحاب المسجد الأقصى وقبة الصخرة. دخلنا باحة قبة الصخرة بعد أن تحجبت زوجتي وأختها بحيث بتُّ والأولاد لا نعرفهما، وهو تقليد من الحرس الخاص بالأقصى، إذ جرت العادة عند دخول النساء من غير المحجبات على ارتداء الملابس الفضفاضة تلفها على جسمها وتلف رأسها أيضًا للحفاظ على حرمة وقدسية المكان.

قبة الصخرة بناء معماري فريد من نوعه، تتوسطه القبة الذهبية التي يستطيع المرء أن يشاهدها في القدس من أي زاوية في المدينة وعن أي بعد، فهي رمز لمدينة القدس العربية. تعتبر قبة الصخرة من أهم معالم المدينة، فقد بنيت في

زمان عبد الملك بن مروان عام 688م وانتهى البناء عام 691. دخلنا مبنى قبة الصخرة وتجولنا في باحة المسجد، وهو آية من الجمال المعماري؛ فجدرانه مزدانة بالنقوش والكتابات الجميلة، أما القبة المذهبة والمغذية بالصفائح الذهبية من الخارج فجميلة من الداخل كما هي جميلة من الخارج، وهي آية في الجمال أيضًا من الداخل بنقوشها الذهبية التي تزينها. تعتبر قبة الصخرة أهم المعالم الإسلامية في العالم، وبالإضافة إلى مكانتها الدينية فهي تمثل أقدم نموذج في العمارة الإسلامية من جهة، ولما تحمله من روعة فنية وجمالية في زخارف الجدران والقبة من الداخل.

بعد أن انتهينا من زيارة قبة الصخرة سلكنا الدرج المقابل لها باتجاه المسجد الأقصى الذي لم تتسنَّ لنا رؤيته من الداخل، فتجولنا في المكان بشكل سريع، ثم غادرنا ساحة المسجد الأقصى متوجهين إلى كنيسة القيامة التي تعتبر من أهم الكاتدرائيات المسيحية في العالم، إن لم تكن الأهم على الإطلاق.

سلكنا طريقًا عموديًّا على طريق خان الزيت، كان يتخلل الطريق الكثير من المحال التجارية التي تبيع العديد من القطع التذكارية للمكان بالإضافة إلى البخور والزيوت وغيرها. هذه المحلات يزورها السواح من كافة الجنسيات وعلى مدار العام.

وصلنا إلى باحة كنيسة القيامة. كان منظرًا مهيبًا، فقد أطلت الكنيسة، وهي «بازيلكا» لا تقل أهميتها عن أيٍّ من الكاتدرائيات أو البازيليكات الموجودة في الكثير من دول العالم، لا سيما الأوروبية منها سواء في

إيطاليا، روسيا، إسبانيا، فرنسا، أو أي دولة أخرى. بعد أن تأملنا منظر الكنيسة من الخارج اتجهنا إلى داخلها. في الداخل العديد من الكنائس تبعًا للطوائف المسيحية المختلفة من: اللاتين، الروم الكاثوليك، الروم الأرثوذكس، الأرمن، السريان وغيرهم من الطوائف الأخرى. دخلنا كافة الكنائس الموجودة بها تباعًا، ولعل أجملها هي كنيسة الروم الأرثوذكس التي تحوي الكثير من التحف النفيسة والزخارف البديعة، وأهمها تمثال للسيدة مريم العذراء محفوظ داخل إطار زجاجي. هذا التمثال مصنوع بشكل تقني فائق من الذهب الخالص بدءًا من التاج الذي يحيط الرأس وانتهاءً بالسيف المغروز في الصدر. ومن الجدير بالذكر أن هذا التمثال كان قد سرق من قبل قطعان جيش الاحتلال في سنة 1967 ورفضت حكومة دولة الاحتلال إعادته إلا بعد تدخل من الفاتيكان والكثير من الحكومات الغربية، فأُجبرت سلطات الاحتلال على أن تعيده إلى مكانه بعد ما يزيد على السنة ونيف.

كانت الكنيسة تعج بالسواح الأجانب الذين جاؤوا من كل حدب وصوب لزيارة المدينة المقدسة، لا سيما هذه الكنيسة على وجه الخصوص. فالقدس تحتوي الكثير من الكنائس والآثار داخل أسوار البلدة العتيقة، لكن كنيسة القيامة أهمها.

كانت زيارة القدس من أجمل الزيارات والرحلات التي قمت بها خلال وجودي في فلسطين. لكن رغمًا عن ذلك، فإن انطباعي في هذه

الزيارة كان مختلفًا كليًّا عما شاهدته قبل 37 عامًا، ويمكنني إيجازه بالنقاط التالية التي راعت اهتمامي:

أولًا: الكثافة السكانية من العرب قذ تضاءلت بشكل ملموس. وهذا أستطيع أن أجزم بأنه ظاهر للعيان. عند التجول في حارة النصارى تشعر بشكل ملحوظ بقلة السكان مقارنة مع ثمانينيات القرن الماضي، إذ جرت العادة لحاملي هويات القدس وإن كانوا مقيمين في المدن الأخرى أن يكون لديهم مسكن في القدس وأن يحافظوا عليه، فأنا أذكر العديد من الأقارب والمعارف الذين كنا نزورهم ولديهم بيوت مستأجرة في القدس، سواء في الوقف المسيحي أو الإسلامي، وكانوا مواظبين على التردد على تلك المساكن للمحافظة على الوجود العربي، لكن للأسف فإن معظم هؤلاء الأشخاص قد قضوا نحبهم، أما الأجيال التي جاءت بعدهم فلا يوجد لديها ذات الاهتمام على الأرجح. وأنا أتفهم ذلك، فلكل جيل طريقته في العيش وفي التعامل مع الأمور المختلفة، ويمكن أن تكون هناك بعض الأسباب المقنعة التي تجعل جيل الشباب من العازفين عن السكن في البلدة القديمة، فالبيوت في البلدة العتيقة لا تتمتع بمزايا البيوت الحديثة في بنائها وتجهيزاتها، مما قد يدفع البعض إلى الانتقال إلى بيوت أفضل. بالإضافة إلى سياسات دولة الاحتلال وقوانينها الوضعية التي تسنّها لصالحها. مثلًا هناك قانون يمنع الجيل الثالث من البقاء في نفس المنزل في حال وفاة الجد والابن، فالحفيد لا يستطيع المكوث في ذات المنزل ويجري إرغامه قسرا على تسليم المنزل لسلطات دولة الاحتلال، وهذه

إحدى سياسات البلطجة الإسرائيلية في حق مواطني مدينة القدس. كما قامت سلطات الاحتلال على مدار السنوات العشرين الماضية، خاصة في السنوات التالية لاتفاقية أوسلو بتجريد الكثير من مواطني القدس من هوياتهم، خاصة حملة الهويات الذين يعيشون خارج مدينة القدس أو خارج فلسطين، كما كانوا قد أوقفوا كافة معاملات لم الشمل لحملة هويات القدس من الذكور والإناث. بالإضافة إلى التضييق على سكان مدينة القدس لإجبارهم على المغادرة بلا رجعة. كان الوجود اليهودي داخل الأسوار في السابق أقل بكثير من الآن. لقد استولى اليهود على كافة البيوت التي هجرت من أجل تهويد المدينة، ضمن خطة ممنهجة لزيادة الكثافة السكانية من اليهود داخل الأسوار من أجل تهويد المدينة بالكامل.

ثانيًا: لا تخلو شوارع القدس من وجود جنود الاحتلال على الطرقات، بمنظرهم المروع الذي يعود إلى كثرة الأسلحة الأوتوماتيكية التي بحوزة كل منهم، يشعرونك أنهم على أهبة الاستعداد للشروع في أي معركة ضد المدنيين ولأتفه الأسباب. حدثني الكثيرون عن تدخلات جيش الاحتلال وحالات الاعتقالات الدائمة للفلسطينيين وتحت أي ذريعة داخل أسوار المدينة المقدسة. أينما نظرت ترى الجنود داخل أسوار المدينة، خاصة في المناطق السياحية وفي الطرقات الفرعية منها، وهم يتجولون في مجموعات صغيرة بحدود ثلاثة جنود في كل مجموعة على الأقل، بالإضافة إلى سيطرتهم على كافة مداخل ومخارج المدينة

على الأبواب السبعة، وحتى على كافة المداخل المفضية إلى باحة المسجد الأقصى.

إن الهاجس الأمني لدى سلطات الاحتلال عالٍ جدًّا، وهذه دلالة على خوفهم المستمر من الشعب الفلسطيني المناضل الذي لا يستأذن بمقاومة المحتل، ولا يرحَم في الهم الوطني وفي الشأن الفلسطيني العام والخاص في ما يتعلق بعروبة المدينة، وفي قدسيتها أو في وجودها كعاصمة أبدية لفلسطين التاريخية، فهي كانت ولا تزال في وجدان كل فلسطيني وعربي، سواء سكن في القدس أو لم يسكنها، عاش في فلسطين، أو هُجِّر منها. فالقدس هي العاصمة الأبدية لفلسطين، كامل فلسطين، وهذه هي الحقيقة الدامغة والراسخة في وجدان أي فلسطيني في القدس، في الضفة، في غزة، أو في الشتات. فمهما كثُرت المؤامرات فلن تتغيير الحقائق الراسخة، وإرادة الشعب قادرة على هزيمة تلك المؤامرات التي تحاك ضد مدينة القدس.

ثالثًا: في ما يتعلق بسكان القدس، رغم قلتهم الآن فإنهم صامدون كالطود في مواجهة قوات الاحتلال، ورغم الظروف المعيشية القاسية والمضايقات اليومية التي يتعرضون لها، والإغراءات التي تقدمها دولة الاحتلال لهم في منحهم جنسية دولة الكيان، كخطوة أولية تكتيكية لإذابتهم داخل المجتمع الإسرائيلي، ليصبحوا إسرائيليي الجنسية مما سيساعد على تهويد القدس بسهولة، وذلك لوجود أكثرية إسرائيلية من العرب الإسرائيليين واليهود داخل القدس. وهذا بالطبع سيقلل الوجود

الفلسطيني العربي تدريجيًّا، وهو مخطط طويل الأمد تسعى معه الصهيونية إلى تهويد القدس بالكامل. تجري هذه المخططات قدمًا مع سياسات تضييق الخناق على الأهالي العرب من سكان المدينة، بشتى السبل والوسائل عن طريق زيادة وتيرة الاعتداءات على السكان والأراضي الفلسطينية المجاورة للقدس، وأوامر هدم المباني والدور التي يقطنها العرب في محيط المدينة بهدف إبعاد المقدسيين الذين هم خط الدفاع الأول حول البلدة القديمة، كما يجري في الشيخ جراح وبطن الهوى في سلوان، وهي من أكثر البلدات في محيط القدس المهددة بالهدم وترحيل المقدسيين لدفعهم للهجرة وتجريدهم من هويتهم المقدسية، إذ تجري هذه السياسات على قدم وساق مع كافة المخططات الأخرى التي ستؤدي حتمًا إلى تناقص عدد السكان تدريجيًّا في القدس الشرقية واستبدال المستوطنين الإسرائيليين بهم. وهذه من الأخطار المحدقة التي يجب أن يوليها المقدسيون جل اهتمامهم، خاصة من جيل الشباب لتضييق الخناق على دولة الاحتلال وإفشال هذا المخطط الذي يستهدف كافة المقدسيين.

إن العمل على دعم صمود أهلنا في القدس الشرقية للحفاظ على الهوية المقدسية العربية هي مسألة وطنية صرفة وواجب نضالي لكل الأشراف الغيورين على مصلحة الوطن، لدحض المخططات الصهيونية بهدف تهويد القدس. وهنا يحضرني حديث كنت قد سمعته من نيافة المطران المرحوم إيلاريون كبوشي مطران كنيسة الروم الكاثوليك في

القدس في تسعينيات القرن الماضي، في يوم كان مخصصًا لدعم القدس ودعم المؤسسات والأوقاف الدينية المسيحية والإسلامية في القدس الشرقية. عندما قال بالحرف: «من الجميل أن نتبرع للحفاظ على المقدسات الإسلامية والمسيحية داخل أسوار القدس، لكن الأهم من المحافظة على المقدسات، دعم صمود أهالي القدس ضد سياسات الترانسفير الإسرائيلية التي تعمل على تفريغ الأرض، فما حاجتنا لترميم حجارة الكنائس والمساجد إذا كان لا يوجد مصلون يؤمونها». ما حذر منه المطران كبوشي قبل ما يزيد على 25 عامًا ينطبق تمامًا على ما نحن بصدده الآن.

سيبقى ملف القدس والوجود العربي داخل القدس من الملفات الساخنة في طبيعة الصراع العربي الصهيوني، ولن تمر كافة المؤمرات التي حيكت وتحاك من قبل الكيان الصهيوني وتلقى الدعم المستمر من الولايات المتحدة الأمريكية والرجعيات العربية التي تآمرت ولا تزال تتآمر على مستقبل القضية الفلسطينية وفي مقدمتها ملف القدس. وكان آخر ذلك صفقة القرن المهينة بحق الشعب الفلسطيني، والتي جاءت بإعلان واشنطن عن طريق رئيسها السابق دونالد ترامب. هذه الاتفاقية تصب في مصلحة الكيان الصهيوني وتسلب الفلسطينيين الكثير من حقوقهم الشرعية، بدءا من إعطاء اليهود الحق في الإبقاء على المستوطنات، وضم 30٪ من الأراضي الفلسطينية إلى الكيان الصهيوني بما فيها السيطرة الكاملة على حوض نهر الأردن، والقفز عن العديد من

الملفات كمسألة اللاجئين وغيرها من القضايا التي تتعارض مع الاتفاقيات والمواثيق الدولية وقرارات مجلس الأمن الدولي في الشأن الفلسطيني، فهي صفقة إعلان من طرف واحد يرفضها الشعب الفلسطيني بكافة فئاته وتياراته السياسية جملةً وتفصيلًا. ولن تمر، ومصيرها كمصير سابقاتها من المؤمرات العديدة التي حيكت وتحاك ضد فلسطين والشعب الفلسطيني الذي يعرف أن طريقه للنصر سيتحقق مهما طال الأمد، وسيبزغ فجر الحرية من جديد وسيندحر المحتل.

• الجولة الثامنة: مدن الساحل الفلسطيني

لا تكتمل زيارة الأراضي المحتلة من دون زيارة مدن فلسطين الساحلية التي اغتصبها الصهاينة وأقاموا عليها دولتهم. وهي مدن فلسطين التاريخية مثل يافا وحيفا وعكا والرملة واللد وتل الربيع.

جميع هذه المدن وغيرها تستحق عناء مشاهدتها والتمتع بجمالها الذي يجسد جمال فلسطين التاريخية من النهر إلى البحر. ابتدأنا نهارنا في الصباح الباكر وتوجهنا في حافلة كنا قد استأجرناها مسبقًا، وكان خط مسيرها يبدأ من الطيبة مرورًا بضواحي مدينة القدس إلى يافا ومن ثم إلى رأس الناقورة من دون توقف، ومن ثم العودة إلى عكا، وختامها زيارة مدينة حيفا أجمل مدن الساحل في حوض البحر الأبيض المتوسط.

تحركنا في الصباح الباكر في تمام الساعة الخامسة نحو معبر قلنديا للدخول إلى القدس ومن ثم التوجه إلى مدن الساحل بحسب خط

الرحلة التي تم الاتفاق عليها مسبقًا مع السائق. وبالفعل كنا على المعبر في حدود الساعة السادسة صباحًا، وبعد إجراءات التفتيش من قِبل جيش الاحتلال على المعبر اتجهنا بمحاذاة مدينة القدس، وكان خط مسيرنا يتضمن المرور بكافة القرى والبلدات التي صادرتها سلطات الاحتلال، والمحاذية للقدس. كان الصباح باكرًا، توقفنا في إحدى محطات الوقود على الطريق السريع من القدس إلى مدينة تل الربيع. كانت الأرض بجبالها ووديانها مزدانة باللون الأخضر وعلى مرمى البصر منظر خلاب يخطف الألباب. لقد تمركزت دولة العدو الاستيطانية على أفضل بقاع فلسطين، أخصبها وأكثرها روعة، وما كانت تلك المناظر الخلابة سوى البداية في رحلتنا إلى مدن الساحل الفلسطيني.

خلال خط الرحلة وبعد تحركنا من الاستراحة، كنت أجلس في مقدمة الحافلة وأتابع الطريق باهتمام شديد. أطرقت مفكرًا وأنا أجول بنظري نحو اليمين واليسار، وأرى خصوبة الأرض المغتصبة وجمالها، وأتخيل كيف تم تهويد هذه المناطق بالكامل بعد طرد أهاليها من السكان الفلسطينيين. هناك العديد من القرى التي أُزيلت بالكامل وسويت بالأرض بعد طرد سكانها وذلك لطمس الهوية العربية وطمس التاريخ تمامًا. لم تكن سلطات الاحتلال تعلم بأن الشعب الفلسطيني بتاريخه وإرثه ووجوده الحي سيبقى صامدًا مهما كانت الظروف، فما عانى منه الأجداد توارثه الآباء والأبناء. أثبت الشعب الفلسطيني المناضل أنه لن يرضى بهذا المصير وسيستمر بالنضال حتى يسترد حقه بالكامل. إن قضية

فلسطين هي قضية شعب لن يستسلم ولن يهادن بالرغم عن التنكيل الواقع عليهم من قبل الاحتلال. وذلك راسخ في الوجدان الوطني الفلسطيني، وهو حقيقة دامغة.

تابعنا مسيرنا إلى يافا ومررنا بمحاذاة مدينتي اللد والرملة، ومن ثم مررنا بأطراف مدينة تل الربيع التي اتخذتها دولة الاحتلال عاصمة لها في الوقت الحالي، وهي بذات الوقت عينها على القدس ورغبتها الجامحة في نقل العاصمة إليها لتكون عاصمة لها، خاصة مع دعم الولايات المتحدة التي قامت بالاعتراف بالقدس كعاصمة لدولة الكيان الصهيوني، وأعلنت عن نقل سفارتها إليها في خطوة لم تلق الترحيب من الفلسطينيين الذين رفضوها جملة وتفصيلًا، ورُفضت أيضًا من قبل المجتمع الدولي، ولم يستجب لنقل السفارات إلى القدس إلا قليل من الدول التي لا يتعدى تعدادها أصابع اليد الوحدة. فالإرادة الفلسطينية ستصمد في وجه كافة المؤامرات وستنتصر بالنهاية.

واصلنا المسير إلى مدينة يافا التي كانت أولى المحطات في جولتنا هذه.

- مدينة يافا

تعتبر مدينة يافا من أقدم مدن فلسطين التاريخية، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وتبعد بمعدل 55 كيلو مترًا إلى الغرب من مدينة القدس. أسسها الكنعانيون في القرن الرابع قبل الميلاد، كانت من أهم مدن الساحل الفلسطيني وأقدمها آنذاك. بلغ عدد سكان يافا عام

1945 بحدود 94,000 نسمة، بينما يسكنها الآن نحو 60,000 نسمة أكثرهم من اليهود، والأقلية من العرب. يافا كانت تعتبر من أرقى المدن الفلسطينية وأهم مركز اقتصادي وثقافي في فلسطين، فقد أسهمت خصوبة أراضيها وموقعها الجغرافي في شهرتها، إذ ارتبطت في علاقات مع الدول المجاورة مثل سورية ولبنان والأردن منذ زمن العثمانيين وامتدت تلك الفترة إلى فترة الانتداب البريطاني، كما هاجر إليها العديد من الفلسطينيين من القرى الفلسطينية وعاشوا فيها، مما أدى إلى ازدهارها بشكل ملحوظ، ليس هذا فحسب بل استقطبت العديد من الجنسيات العربية الأخرى فسكنتها وهُجِّرت منها مع النكبة.

كنا قد وصلنا إلى مدينة يافا في التاسعة صباحًا وتوجهنا إلى المنطقة العربية، وبالتحديد إلى حي العجمي الذي يتمتع بالحفاظ على التراث الفلسطيني العربي الأصيل. فمبانيه القديمة مرممة بشكل جيد وتتمتع بجمال أخاذ.

مدينة يافا تتمتع بموقع رائع على البحر الأبيض المتوسط كونها مدينة ساحلية جميلة، تُشعر زائرها بقيمتها التاريخية، ففيها يمكن للمرء أن يستشعر عبق التاريخ الذي يراه مشعًّا من كل ركن في هذا الحي القديم، فيها يختلط التاريخ القديم لفلسطين التاريخية الذي يجذبك إلى ما آلت إليه الآن. تجولنا في حي العجمي حيث خالجني الشعور بعمق الانتماء إلى هذا المكان على الرغم من أنني أراه للمرة الأولى في حياتي. هو شعور جميل يختلط فيه الخيال مع الواقع والذاكرة الشعبية المتوارثة من جيل

الآباء والأجداد والقصص التي تناقلوها جيلا بعد جيل عن مدينة يافا وبياراتها المتميزة وموقعها الرائع وطقسها المعتدل. على الرغم من أنني لم أر البيارات تلك، لكن خصوبة الأرض واعتدال المناخ قد أعطى لدولة الاحتلال الفرصة في استغلال تلك الأراضي الزراعية والاستفادة من المحاصيل الزراعية وتسويقها باسم دولة الاحتلال.

كانت جولتنا قصيرة في المدينة، وذلك لأننا وصلنا باكرًا ولم تكن المحلات التجارية المختلفة قد فتحت أبوابها من ناحية، ومن ناحية أخرى كان البرنامج حافلًا بالكثير من الفعاليات. فاكتفينا بالتجوال السريع في المدينة ومن ثم المغادرة. ما لاحظته، أن ملامح المدينة خارج حي العجمي كانت مختلفة كليًّا، فهي ذات طابع حديث من العمارات العالية. فقد تم هدم المدينة القديمة واستبدالها بالعمارات الشاهقة

لطمس الهوية العربية وتهويدها بالكامل. لم يتسن لنا أن نتكلم مع أي من السكان العرب لأن الوقت كان باكرًا جدًّا والمحلات العربية مقفلة، ولضيق الوقت تركناها ومضينا نحو محطتنا الأخرى. يافا عروس البحر لم تعطني انطباعًا أكثر من أنها هُوّدت بالكامل بعد طرد الشعب الفلسطيني منها بتهجير سكانها في العام 1948. هذا العام الذي سُمّي «سنة النكبة» التي كانت وبالًا على الشعب الفلسطيني الذي هُجِّر من أرضه، وأصبح ما يقارب من 700 ألف فلسطيني في الشتات موزعين بين الضفة الغربية والأردن وسورية ولبنان. إنه ألم وغصة في القلب لا يمكن أن تنسى، ولن تنسى.

- رأس الناقورة

بعد خروجنا من عروس البحر مدينة يافا كنا قد واصلنا السير بلا توقف إلى أن وصلنا إلى مدينة رأس الناقورة التي تبعد ما يقارب 250 كيلومترًا عن مدينة القدس. رأس الناقورة تقع على الحدود مع لبنان، فمدينة بيروت العاصمة اللبنانية تقع على بعد 120 كيلومترًا عن الحدود. كما أنها منطقة سياحية مطلة على البحر الأبيض المتوسط ومقابلة لجزيرة قبرص.

تعتبر رأس الناقورة محمية طبيعية تقع في شمال فلسطين المحتلة، وتقع أيضًا في أقصى الجنوب الساحلي من جنوب لبنان، وتتميز هذه المنطقة ذات التشكيل الجيولوجي الفريد والمليء بالصخور الجيرية

العالية التي تعلو مستوى البحر بحوالي 300 متر عن سطح البحر، وتنحدر تدريجيًّا باتجاه البحر حيث قامت المياه وعوامل الطبيعة بنحت تشكيلات طبيعية جميلة داخل هذه الصخور، فأصبحت كالمغر تغمرها المياه من الأسفل وتتميز بمنظر خلّاب للزائر، ويمكن للسائح الوصول إليها عن طريق التلفريك الهوائي الذي يبلغ طوله ما يعادل مئة متر نزولًا إلى أسفل الجبل بمحاذاة البحر، ليجد المرء نفسه داخل المغارة الكبيرة وينطلق في رحلة من خلال الممرات المرصوفة جنب المياه، فينتهي إلى سوق صغير وسينما صغيرة تستعرض تاريخ المنطقة لكن بشكل مضلل لا يمت للحقيقة بأي صلة، إذ يصور صنّاع الفيلم الذي لا يتعدي خمس عشرة دقيقة المنطقة بأنها تعود لليهود منذ زمن بعيد، فالسواح الأجانب الذي لا يعرفون معاناة الشعب الفلسطيني وتاريخ الصراع العربي الصهيوني سيصدقون بكل تأكيد ما يتناوله اليهود في طرح أكاذيبهم حول حقهم التاريخي في هذه المنطقة، في حين يشير التاريخ بكل وضوح إلى أن هذه المنطقة دخل من خلالها الإسكندر الأكبر فلسطين عام 333 قبل الميلاد، واستخدمها الإنجليز خلال فترة احتلالهم لفلسطين كمنطقة حدودية على الحدود اللبنانية من خلال حفر نفق للسكك الحديدية من حيفا باتجاه بيروت مرورًا برأس الناقورة، وذلك لتسهيل مرور الإمدادات من مصر إلى الشمال، ذلك أن فلسطين كانت موقعًا جغرافيًّا هامًّا تتوسط المنطقة لتربط الشمال الإفريقي بآسيا وهي مناطق نفوذ الإمبراطورية البريطانية في ذات الوقت. ومن هنا أدرك الإنجليز أهميتها الجغرافية.

قام اليهود عند بداية احتلالهم للأراضي الفلسطينية بتفجير سكك الحديد لحماية هذه المنطقة الحدودية من أي عدوان محتمل من الأراضي اللبنانية، وقامت بتحصين المنطقة واعتقال وطرد سكانها إلى لبنان في محاولة لتهويدها بالكامل نتيجة لموقعها الجغرافي المميز. تتمتع المنطقة بوجود بعض المحميات الطبيعية مثل منتزه رأس الناقورة الذي يقع على بقعة أرض لا تقل عن 220 دونما، ومحمية رأس الناقورة التي تزيد على 500 دونم، كما أن هناك جزرا تابعة لنفس المنطقة، تقع على 311 دونما، وقد أُعلنت أيضًا محمية طبيعية عام 1965.

إن سر اهتمام دولة الاحتلال بهذة المنطقة لا ينبع من موقعها الجغرافي الحدودي المهم لأمن دولة الاحتلال لتأمين الحدود مع لبنان، بل إن جمال الطبيعة من الممكن استغلاله سياحيًّا لتدر المنطقة الدخل على خزانة دولة الاحتلال من خلال تشجيع السياحة إلى هذه المنطقة. من أجل ذلك قامت سلطات الاحتلال بتدمير الآثار العربية بالكامل، وتم طرد العرب من المنطقة وهدمت بالكامل الآثار العربية لطمسها في محاولة تهويدها بالكامل. كنا قد تجولنا في المنطقة بحدود المواضع التي خُصصت لزيارة الأماكن السياحية من خلال الاستراحة على التلة العالية التي تطل على البحر المتوسط، والمخصصة للسياح لارتياد رحلة التلفريك القصيرة إلى الأسفل باتجاه المغر، ومن ثم العودة بنفس التلفريك إلى الأعلى باتجاه الاستراحة. ما يلفت الانتباه هناك، إضافة إلى الوجود العسكري المكثف، أن اليهود يفاخرون بأن بيروت على مرمى

النظر من خلال لافتة صغيرة يتصور عندها الكثير من الزوار تشير إلى سهمين، سهم باتجاه اليمين يشير إلى بيروت دوِّنت تحته عبارة «بيروت 120 كيلومترًا»، وسهم باتجاه اليسار يشير إلى القدس ودوِّنت تحته عبارة «القدس 250كيلومترًا». وهذه إشارة ضمنية إلى أن قوات الاحتلال تعتبر بيروت قريبة جدًّا وتحت نيرانها. لم نستطع أن نرى أكثر من ذلك في هذه المنطقة الحدودية، فأنهينا زيارتنا وقفلنا عائدين باتجاه عكا محطتنا الثالثة في هذه الرحلة.

- مدينة عكا

تتميز مدينة عكا بموقعها الرائع على البحر الأبيض المتوسط، وهي من أهم مدن فلسطين التاريخية. وتقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وتبعد بحدود 180 كيلومترًا عن مدينة القدس. تبلغ مساحة مدينة عكا 13,5 كيلومتر مربع وعدد سكانها بحدود 46 ألف نسمة، ويشكل العرب نسبة 35٪ من سكان المدينة والباقي من اليهود والمستوطنين. مدينة عكا وأسوارها أسسها الكنعانيون قبل ثلاثة آلاف عام على ميلاد السيد المسيح وسموها «عكو» أي الرمل الحار باللغة الكنعانية[1]. تعرضت عكا للكثير من الحملات العسكرية والاحتلال، فقد احتلها الإغريق والرومان والفرس والفرنجة والصليبيون. كما دخلها العرب المسلمون بقيادة شرحبيل بن حسنة في زمن الخليفة الأموي

(1) معجم البلدان، الجزء الرابع، ص144.

معاوية بن أبي سفيان في العام 16 للهجرة الموافق عام 636 ميلادي. كما أنشأ الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان بها دارًا لصناعة السفن في العام 640. أما في زمن العثمانيين فكان من أهم قوادها أحمد باشا الجزار الذي ينتمي إلى أصول بوسنية.

كما يوجد في عكا العديد من الآثار والأماكن التاريخية الهامة التي تعود إلى مختلف العصور والحضارات التي مرت على هذه المدينة العريقة، مثل جامع الجزار والسوق الأبيض وخان العمدان والقلعة وأسوارها، وغيرها الكثير من المعالم الأثرية التي تؤكد عراقة هذه المدينة. لهذا تعتبر من أهم مدن فلسطين التاريخية. تنقسم المدينة كسائر المدن القديمة إلى مدينة قديمة أثرية وأخرى حديثة. يتركز السكان

العرب في المدينة القديمة التي ما زالت تحافظ على الفترات الثلاث من تاريخها وهي الفترات العربية والصليبية والتركية. تعتبر أسوار مدينة عكا من أهم الأماكن التاريخية التي تميزها، فقد بنيت في زمن العثمانيين، وبالتحديد بناها القائد ظاهر العمر الذي احتلها عام 1744 وأصبح حاكمًا لها، وقام بتحويل المدينة من مدينة بسيطة ومنسية على شواطئ البحر المتوسط إلى مدينة هامة وذات شأن عن طريق تحصينها بأسوار وأبراج لحمايتها من الغزوات والأطماع الخارجية. فقد قام ببناء أسوار وأبراج للمدينة على أساسات الأسوار التي بناها الصليبيون في عهد سابق. أما هذه الاسوار التي نرى آثارها الآن فقد بنيت بين العامين 1750-1751، ويبلغ طول الأسوار 500 متر من ناحية الشمال و300 متر من الشرق، وبارتفاع بحدود ثمانية أمتار وسماكة بحدود المتر[1].

بلغت المدينة أوجها في العام 1799 عندما كانت أسوارها عصية على الحملة التي قام بها نابليون بونابارت لاحتلال فلسطين، والتي أطلق عليها الورقة اليهودية. وكانت تهدف لإيجاد وطن لليهود على أرض فلسطين قبل وعد بلفور المشؤوم بـ 138 عامًا. ما يهمنا هنا أن مدينة عكا كانت من أهم الموانئ الفلسطينية التي اشتهرت بصيد الأسماك والتجارة والصناعات الخفيفة. ما هو ملفت للنظر أن المدينة القديمة يسكنها العرب في بيوت قديمة ولم يتخلوا عنها. ومن الجدير بالذكر أن سلطات

(1) كتاب عكا عاصمة غير متوجة، ص121.

الاحتلال لا تهتم بعكا كاهتمامها بالمدن الأخرى، بل استخدمتها لتوطين اللاجئين الجدد الذين يفدون إلى دولة الاحتلال من اليهود ثم يهاجرون منها إلى المدن الأخرى ما إن تتحسن أوضاعهم المادية. ويشكل الوجود العربي قلقًا بالغًا لدى سلطات الاحتلال الذين يخشون تكاثرهم على الرغم من سياسات التهويد والتعايش التي يحاولون فرضها، إلا أن الطابع العربي هو ما يخيف السكان اليهود ويدفعهم للهجرة من المدينة. وسعت إدارة الاحتلال إلى تقليص النفقات خاصة في قطاع التعليم للمدارس العربية، وذلك لإجبار الأهالي على تسجيل أبنائهم في المدارس اليهودية، على الرغم من المناداة بالفصل بين العرب واليهود من قِبل الخطاب الديني اليهودي العنصري وتحسين أوضاع العرب حتى لا يتم التعايش الذي سيفرض سلطة العرب بأعدادهم المتزايدة. فهناك العديد من الإشكاليات بالنسبة إلى دولة الاحتلال التي تخشى تفجر القنبلة الديمغرافية نتيجة للتكاثر العربي داخل حدود الـ 1948 مما سيؤدي إلى السيطرة العربية.

لقد كانت رحلتنا تتضمن زيارة المدينة القديمة والأسوار وجامع الجزار، والتعرف على ملامحها التي تحوي الكثير من الأسرار نتيجة لتعاقب الكثير من الحضارات على هذه المنطقة. تجولنا داخل المدينة وفي الأسواق القديمة وتبادلنا أطراف الحديث مع الباعة، ومن ثم توجهنا للباص لاستكمال رحلتنا إلى حيفا أجمل مدن فلسطين الساحلية، وهي بالفعل من أجمل المدن التي تطل على البحر الأبيض المتوسط.

- مدينة حيفا

يقول الشاعر أحمد دحبور في مقدمة ديوانه عن حيفا:

حيفا هذه ليست مدينة، إنها الجنة ومن لا يصدق فليسأل أمي

يمّه: خذيني إلى حيفا

بكرا لما بتكبر ستأخذني أنت إليها

حيفا هي تحفة من تحف فلسطين ومن أكبر مدنها، تبلغ مساحتها ما يقارب 63 كيلومترًا مربعًا، يبلغ التعداد السكاني للمدينة بحدود 272 ألف نسمة، كما يبلغ عدد السكان القاطنين في ضواحيها ما يقارب 300 ألف نسمة. لهذا تعتبر من حيث التعداد السكاني ثالث مدن فلسطين التاريخية التي احتلتها سلطات الاحتلال عام 1948[1].

تبعد حيفا عن القدس حوالي 158 كيلومترًا. تأسست قرية حيفا قبل 14 قرنًا قبل الميلاد، وتعود التسمية إلى العصر الروماني حين أطلق الرومان على حصن روماني في موقع المدينة الحالية اسم Efa[2]، أما حيفا الحديثة، فقد تأسست على أنقاض المدينة القديمة عام 1761 في زمن القائد العثماني ظاهر العمر الزيداني، وكانت تابعة للولاية العثمانية التي أسسها في الجليل. ازدهرت حيفا في زمن العثمانيين نتيجة للتقارب العثماني – الألماني، فقد بدأ الاستيطان الألماني لبعض العائلات التي

(1) كتاب حيفا.. قصة مدينة، ص78.

(2) E 2007, Cities of the Middle East and North Africa: Historic Encyclopedia, P. 159.

استوطنت في المدينة في العام 1868، وأقاموا في القسم الغربي من المدينة وجلبوا معهم العديد من وسائل الراحة، وبنوا المدارس والحدائق وأسهموا في جلب الوسائل والأدوات الزراعية الحديثة، وفي تطوير المدينة وأصبح لديهم حي هو الحي الألماني (حي كارملهايم)، وذلك سابق بكثير للاستيطان الصهيوني والانتداب البريطاني في مطلع القرن العشرين بعد الحرب العالمية الأولى. وفي الواقع، هناك حقيقة دامغة يجب التذكير بها دائمًا، وهي أنه أينما يحل الإنجليز يحل الخراب، بالإضافة لكونهم من المستعمرين الذين عاثوا خرابا في الكثير من بلدان العالم، فهم أيضًا كانوا سببًا مباشرًا لاقامة دولة الاحتلال الصهيوني على أرض فلسطين التاريخية. إن وجود الانتداب البريطاني في فلسطين أسهم في هجرة القطعان الصهيونية والعصابات إلى داخل فلسطين بعد وعد بلفور الذي قُطع للحركة الصهيونية بإعطائهم الحق في إقامة دولة لهم على أرض فلسطين، فمع السماح لهم بالهجرة والاستيطان منذ بداية القرن تركز العديد من المستوطنين في حيفا ذات الموقع المميز، فزاد عدد سكان حيفا من 10,000 نسمة عام 1916 إلى 150,000 نسمة عام 1948، منهم 70,000 نسمة من العرب نصفهم من المسيحيين والنصف الآخر مسلمون. أما الـ80,000 نسمة الأخرى فمن اليهود المستوطنين. وهبط مجموع السكان عام 1948 إلى 97,000 نسمة كنتيجة طبيعية للنكبة وطرد السكان الفلسطينيين والاستيلاء على بيوتهم من قِبل المستعمر الصهيوني، وبهذا لم يتبق من العرب ما يزيد على 2,500 نسمة

في مقابل 96٪ من المستوطنين اليهود. أما الآن فيشكل العرب بحدود 10٪ من السكان في المدينة. وتعتبر حيفا الآن من أهم المدن في حوض البحر الأبيض المتوسط، فميناؤها من أكبر وأهم الموانئ في المنطقة.

أما تاريخ المدينة الثقافي فهو عريق جدًّا، وما زال السكان العرب يحافظون على الإرث الثقافي العربي من السنوات الممتدة من قبل النكبة إلى غاية اللحظة، في عدم السماح للمستوطنين اليهود بطمس الهوية العربية للمدينة، فما زالت هناك العديد من الكنائس الهامة والحي العربي في وسط المدينة، بالإضافة إلى العديد من المسارح ودور النشر والمتاحف العربية، كما

كان هناك جهد كبير لتشجيع الشعراء والأدباء للانتقال والعيش في حيفا، وبهذا تأسس في المدينة مسرح للبلدية لتعزيز الثقافة واللغة العربية، وذلك عن طريق تشجيع إقامة الندوات الفكرية والأدبية المختلفة للمحافظة على التراث الفلسطيني العربي، كما يوجد في حيفا مسرح صحيفة الميدان، وهو المسرح الرئيس لخدمة اللغة العربية للسكان في شمال فلسطين.

هناك الكثير من الأدباء الذين ولدوا في حيفا، عاشوا فيها ولم يغادروها، وأبرزهم الأديب الفلسطيني المرحوم إميل حبيبي الذي يعتبر من أهم رواد الأدب الفلسطيني المعاصر فقد ولد وعاش ومات في حيفا، وكان قد أوصى بأن يُكتب على قبره بعد مماته «إميل حبيبي – لم يغادر حيفا»، وهذا يدل على عمق الانتماء إلى حيفا وفلسطين عمومًا. لم يكن إميل حبيبي كاتبًا فحسب، بل كان سياسيًّا عنيدًا ومناضلًا شرسًا ضد سلطات الاحتلال الإسرائيلي، وكان عضوًا بارزًا في الكنيست الإسرائيلي فاتخذه منبرًا للهجوم العلني والصريح على سياسات الاحتلال الغاشمة، وممارساته العنصرية والهمجية ضد شعبنا العربي الفلسطيني في الضفة والقطاع وسائر الأراضي الفلسطينية. لم يكن إميل حبيبي الكاتب الوحيد من حيفا، بل هناك كوكبة من الكتاب الذين تنحدر أصولهم منها، أو خلدوا ذكر المدينة بالكتابة عنها، فقد توّج الكاتب الفلسطيني الشهيد غسان كنفاني أحد أهم أعماله الروائية بروايته «عائد إلى حيفا»، وهذا يدل

على عظمة المدينة وأهميتها في التاريخ الفلسطيني القديم والمعاصر. وهذا غيض من فيض.

تعتبر حيفا من أجمل مدن الساحل المطل على البحر المتوسط. وتمثل حدائق البهائيين المنظر الهام والبديع للمدينة. فصور الحدائق وجمالها الأخاذ تتصدر مناظر المدينة في كافة وسائل التواصل وفي المنشيتات والصور الدعائية التي تمثل جمال المدينة. فحدائق البهائيين تعتبر أماكن مقدسة عند أتباع الديانة البهائية، وهي توجد في حيفا وعكا ومحيطها، وفي مناطق قريبة من بغداد. أما حدائق البهائيين في حيفا التي تسمى «حدائق حيفا المعلقة»، فهي آية في الجمال. تزين جبل الكرمل، ويرجع تاريخها إلى عام 1987 عندما باشر في بنائها الإيراني فريبرز صهبا وانتهى من العمل بها وافتتحت عام 2001. فهي حديثة العمران. أما سبب بنائها في حيفا فيعود إلى أنها تعتبر مركز الديانة البهائية في العالم. تمتد الحديقة على مساحة 200,000 متر مربع على سفح جبل الكرمل. تضم الحدائق مبنى القبة المسمى المقام الذهبي مقام الباب قبة عباس، وهو أحد المبشرين بالبهائية، قُتل عام 1850 وتم نقل رفاته إلى حيفا. وهناك أيضًا مقام لضريح عبدالبهاء بن بهاء الله، و«حضرة الباب» المبشر بقدوم بهاء الدين، وهو أقدس شخصية عند البهائيين، وضريحه في حدائق البهجة في عكا[1].

(1) ويكبيديا، عن حدائق البهائيين حيفا.

كانت جولتنا القصيرة في المدينة في غاية الروعة، لكن أدركنا المساء ولم نتجول في كافة المناطق التي تعكس تاريخ المدينة المشرق، فكما يقول المثل كان ختام هذا اليوم مسكا بانتهاء الزيارة في هذه المدينة رائعة الجمال. غادرنا حيفا وهي من المدن التي تركت لدي انطباعًا هامًّا بضرورة العودة إليها مرة أخرى.

واقع الحياة الفلسطينية في ظل الاحتلال

كانت مدينة حيفا آخر المدن التي زرناها من خلال زيارتنا لفلسطين التاريخية، وبها أنهينا جولاتنا التي تضمنت زيارة بعض مدن الضفة الغربية الخاضعة للسلطة الوطنية الفلسطينية، بالإضافة إلى زيارة مدن الساحل الفلسطيني الواقعة تحت حكم دولة الاحتلال. بالطبع هناك فرق شاسع بين هذه المدن وتلك، مما يولد انطباعًا مختلفًا تمامًا. هناك فرق كبير بالنسبة لفلسطينيي الضفة وفلسطينيي دولة الاحتلال في مستوى المعيشة والخدمات والدخل وطبيعة الحياة ذاتها، ويتعدى ذلك إلى الاهتمامات المختلفة وحتى النضال السياسي. هذا الفارق يجعلنا ندقق على واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في فلسطين التاريخية، على هذا الصراع المرير مع دولة الاحتلال الذي انعكس على واقع الحياة في ظل الاحتلال بالنسبة للفلسطينيين في الضفة الغربية والقطاع، وأيضًا بالنسبة إلى الفلسطينيين داخل دولة الاحتلال الذين تعتبرهم إسرائيل مواطنين من الدرجة الثالثة أو الرابعة.

لقد فرضت سلطات الاحتلال واقعًا مريرًا ألقى بظلاله على الكثير من مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للفلسطينيين ضمن هذا الصراع المستميت على الأرض، بين شعب مغتصب ودولة عنصرية أقامت دولتها على حساب شعب آخر اغتصبت حقه وأراضيه وطردته خارجًا، مما شكل حالة من المقاومة الطبيعية للشعب صاحب الأرض

الذي تصدى منذ الإرهاصات الأولى للاحتلال الصهيوني لفلسطين. لقد رفض الفلسطينيون بكافة فئاتهم وأطيافهم السياسية هذا الاستعمار وقاوموه بوجودهم وعزمهم على الصمود ونضالهم ووقوفهم في وجه المحتل، بل حتى في تكاثرهم الذي أفشل الخطط الصهيونية في تهويدها للمناطق العربية وفي استعمارها الذي أرادته إحلاليًّا. إن الهاجس الديمغرافي وتكاثر العرب داخل فلسطين التاريخية هو ما يؤرق سلطات الاحتلال بشكل كبير، لهذا فإنها مستمرة في ممارسة المزيد من الضغوطات على الشعب الفلسطيني من أجل تشريده ونزع أراضيه بالقوة، في حين يعي الشعب الفلسطيني ذلك تمامًا ويقف صامدًا في وجه المحتل، على الرغم من أنه دفع ويدفع ثمنًا غاليًا لغاية اللحظة في حرمانه من ممارسة حياته اليومية بسهولة ويسر نتيجة لهذه الظروف القهرية. هذا الواقع الصعب والمرير أدى إلى الإضرار بكافة القطاعات الحيوية في الريف والمدن الفلسطينية، خاصة في القطاعات الزراعية والصناعية والخدماتية نتجة تبعيتهم لاقتصاد دولة الاحتلال التي تتحكم بالمعابر والحدود والبضائع، وترسم السياسات العامة، وتفرض المزيد من القوانين الرادعة لتطور هذه القطاعات لتبقيها ضمن التبعية المباشرة لاقتصاد دولة العدو. ونتيجة لتلك الزيارات والجولات فقد رصدتُ الكثير مما شاهدت، وتشكل لدي انطباع عام عن طبيعة الحياة في فلسطين، فقمت بتحليل ودراسة هذا الواقع الأليم في ما يتعلق بماذا حل بفلسطين؟ ماذا حل بالريف الفلسطيني بالتحديد من تغيرات كنت قد

رأيتها ضمن معطيات الواقع الحالي، فحاولت دراسة هذه التغيرات في محاولة لفهم حجم الأضرار التي طالت هذا القطاع، ومدى التشوه الذي حصل مع دوام الاحتلال، خاصة في العقود الأربعة الماضية بناءً على التغيرات السياسية التي طرأت على القضية الفلسطينية واتفاقيات السلام، ومجيء السلطة الوطنية وانعكاسات هذا التغيرات على أرض الواقع، وكذلك الحال بالنسبة للتغيرات والتشوهات التي طالت القطاعات الأخرى، كالحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، مما اضطرني إلى دراسة تلك الظواهر بتمعن في محاولة للفهم والاجتهاد في تحليل هذا الواقع بناءً على النتائج التي شاهدتها وقمت بمقارنتها مع ظروف الاحتلال في ما سبق مجيء السلطة الوطنية، وها أنا اضعها بين يدي القارئ ليتعرف على مجمل هذه التغيرات. هذه الآراء هي وجه نظر تعبر عن رأيي الشخصي في ما شاهدت، قد يتفق معي البعض وقد يختلف البعض الآخر. حاولت أن أتحرى الدقة بكل موضوعية بقدر ما تقتضي الضرورة.

- الإنتاج الزراعي في الريف الفلسطيني

تميز الريف الفلسطيني بجماله الأخاذ، فعندما نتكلم عن فلسطين فإن أول ما يقفز إلى سطح الذاكرة المنظر البديع لشجر الزيتون المصطف في صفوف منتظمة. فلشجرة الزيتون دور بارز في حياة الفلسطينيين. يعزى ذلك إلى أهميتها الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والروحية، فالأسر

الفلسطينية التي تعتاش على رعاية شجر الزيتون تستخدم ثمارها وزيتها وثفلها وأوراقها في طائفة من الصناعات الغذائية، كما تُستخدم في صناعة الصابون ومصنوعات الزينة، وتستخدم في العلاج وغيره، فهي ثراء الأرض الفلسطينية بيئيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا. هي من المحاصيل الزراعية الرئيسية في فلسطين ورمز للمقاومة والصمود لما تتمتع به من قدرة على التكيف مع المتغيرات والعيش طويلًا في ظروف قاسية، إذ إن ارتباطها بالأرض قوي بسبب نموها البطيء وطول عمرها.

بدأت زراعة الزيتون في قديم الزمان، إذ يرجع تاريخ زراعة الزيتون إلى آلاف السنين، فقد عُثر على مكتشفات تعود إلى العصر النحاسي تشير إلى العديد من بساتين الزيتون وطرق عصره لإنتاج الزيت، وتحديدًا بين 3600 إلى 3300 قبل الميلاد. وهناك بعض الدراسات الأخرى التي تشير إلى قبل ذلك التاريخ بألفي أو ثلاثة آلاف عام. وتشير إلى أن شجرة الزيتون تعود أصولها إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، وتحديدًا الواقعة بين أضنة وشمال غرب سورية وصولًا إلى جبال نابلس في فلسطين جنوبًا، وتشمل منطقة الانتشار هذه، كل المنطقة الجبلية الواقعة بين هاتين النقطتين.

انتقلت زراعة الزيتون من بلاد الشام، إلى المغرب العربي، ومنه إلى إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا وإيطاليا. ولأن شجر الزيتون يعيش طويلًا، فهناك الكثير من أشجار الزيتون المعمرة في سورية، كما توجد في القدس أشجار يقدر عمرها بألفي سنة أو أكثر. ليس هذا فحسب، فقد

حازت شجرة الزيتون على أهمية كبيرة ومكانة رفيعة في حضارات عديدة في العالم أجمع، وأبرز الأمثلة ما نجده من ذكر لها في قصائد وكتابات اليونان القدامى والكتب المقدسة. فقد اعتبرت شجرة الزيتون ذات أهمية في الديانات الإبراهيمية الثلاث في المنطقة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، فقد أشارت الكتب العبرية إلى الزيتون كرمز للازدهار، كما اعتبر جبل الزيتون ذا أهمية كبرى في العهد الجديد، واستخدم زيت الزيتون لمسح المرضى كجزء من الممارسات الدينية في المسيحية، وكعلاج أشير إليه في الإسلام أيضًا، عدا عن استخدامه في العلاج والطعام وغيرها من الاستخدامات العديدة. كما تتخذ الأمم المتحدة الحمامة وغصن الزيتون شعارًا لها للتعبير عن السلام. وهناك العديد من الأعلام لدول كثيرة في العالم يظهر غصن الزيتون كأحد أركانها.

في الأدب الحديث استعار محمود درويش وجود شجرة الزيتون وجذورها الضاربة في الأرض في تشبيهه بالوجود الفلسطيني منذ آلاف السنين، فيقول في مطلع إحدى قصائده:

لو يذكر الزيتون غارسه!
لصار الزيت دمعًا
يا حكمة الأجداد، لو من لحمنا نعطيك درعًا
لكن سهل الريح، لا يعطي عبيد الريح زرعًا
إنا سنقلع بالرموش الشوك والأحزان.. قلعًا
وإلام نحمل عارنا وصليبنا! والكون يسعى

سنظل في الزيتون خضرته، وحول الأرض درعًا

كما استخدم درويش شجرة الزيتون في عنوان قصيدة أخرى هي شجرة الزيتون الثانية التي قال في مطلعها:

شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك

هي سيدة السفوح المحتشمة

بظلها تغطي ساقها ولا تخلع أوراقها أمام العاصفة

تقف كأنها جالسة، وتجلس كأنها واقفة.

ونظرًا لوجود الزيتون بكثرة في منطقتنا وبصفته سلعة وطنية، فقد أصبح سلعة تجارية في العصر البرونزي، إذ يُعتقد أن سفينة أولوبورون التي عُثر عليها قبالة السواحل التركية محطمة، كانت تحمل على متنها زيتونًا أخضر من فلسطين. فزراعة الزيتون من الزراعات الوطنية التي مارسها الفلاحون عبر الزمن، بالإضافة إلى زراعة الحبوب والحمضيات في فلسطين التاريخية.

يوجد في العالم أكثر من 750 مليون شجرة زيتون، 95٪ منها في منطقة البحر الأبيض المتوسط[1]. أما في فلسطين وحدها فيقدر عدد أشجار الزيتون المثمرة بنحو 7,8 مليون شجرة من أصل ما يقارب 12 مليونا بحسب الإحصائية التي قُدِمت عن زراعة الزيتون في فلسطين إلى مؤتمر

(1) شجرة الزيتون.. ثقافة الحياة والسلام، صحيفة «البيان»، 2/ 12/ 2012.

التجارة والتطوير للأمم المتحدة عام 2011[1]. كما أن هناك الكثير من الإحصائيات الأخرى التي تقدر عدد الشجر المثمر في فلسطين بحدود 5,8 مليون شجرة من أصل ما يقارب 11 أو 12 مليون شجرة.

تطورت زراعة الزيتون في فلسطين في المنطقة المحيطة بمدينة نابلس بين العامين 1700 و1900، لتصبح مركزًا رئيسًا للإنتاج، وقد استُخدم الزيت المستخرج بديلا للنقود، فقد خزن الزيت في آبار عميقة في المدينة والقرى المجاورة لها ليستخدم وسيلة للدفع بين التجار. ازداد استخدام الزيتون كبديل للنقود بحلول القرن التاسع عشر، فبلغت مساحة البساتين المزروعة بالزيتون في فلسطين التاريخية حوالي 475,000 دونم وذلك في سنة 1914[2]. بينما وصلت هذه النسبة إلى 940,000 دونم عام 2001[3]. كما يسهم قطاع الزيتون الفرعي بنسبة 15٪ من مجموع الدخل الزراعي في فلسطين، ويخفف وطأة العطالة والفقر بتوفير ما يتراوح بين 3-4 مليون يوم عمل موسمي، ويدعم 100,000 عائلة فلسطينية[4]. ورغم أهمية زراعة الزيتون في فلسطين إلا أنها ظلت تتناقص منذ العام 1967 وذلك بسبب ممارسات وظروف الاحتلال.

(1) تقرير مؤتمر التجارة والتطوير لعام 2011.

(2) تقرير الأونكتاد بعنوان: قطاع الزراعة الفلسطينية المحاصرة، ص5

(3) المصدر السابق، ص5.

(4) المصدر السابق، ص5.

يشكل هذا القطاع عنصرًا أساسيًّا في الاقتصاد الوطني الفلسطيني، ويسهم في الناتج المحلي الإجمالي والأمن الغذائي مساهمة ملموسة، ففي العام 2011 بلغت حصة القطاع الزراعي 5,5٪ من الناتج المحلي الفلسطيني و15٪ من مجموع العمالة (بحسب إحصائية الجهاز المركزي للإنتاج 2012). بيد أن أفراد العائلة الذين يعملون من دون أجر يمثلون 94٪ من مجموع عدد العاملين في الزراعة، ويُقدر عددهم بـ 292,000 عامل، بينما تقل نسبة العاملين الذين يتلقون أجورًا عن 6٪ من مجموع العاملين الزراعيين (بحسب إحصائية لسلطة النقد الفلسطيني 2012)[1]. وتبلغ حصة هذا القطاع من الصادرات زهاء 20٪ من الصادرات الرئيسية في الزيتون وزيت الزيتون والخضروات والورد.

مع كل ما ذكُر، فإن هذا القطاع ما زال يعاني الكثير من المشاكل التي يمكن تلخيصها بالآتي:

أولًا: مع بداية استيطان اليهود فلسطين قبل عام النكبة، كان المزارع الفلسطيني أكثر تمرسًا وخبرة وذكاءً من نظيره الصهيوني، لكنه لم يستطيع خلال تلك المدة الممتدة بين الاحتلالين العثماني والإنجليزي أن يحدّث أساليبه وفق مستوى طموحاته، وذلك لنقص رؤوس الأموال المتاحة وفقر خدمات الإرشاد والبحث العلمي والتدريب الزراعي، وغيرها من الأسباب الكثيرة التي رافقت ظروف البلاد تحت الاستعمار. كما أن

(1) إحصائية من سلطة النقد الفلسطيني عام 2012.

المزارع الفلسطيني راح يتعرض لموجة صراع صهيوني استهدفت نزع الأرض العربية الفلسطينية منه، الأمر الذي أدى إلى خلق حالة من النزاع المستمر المرير والدموي بين المزارع الفلسطيني والمهاجر الصهيوني، وأدى بالتالي إلى خلق حالة من عدم الاستقرار المؤذية للنشاط الزراعي، خاصة ما يتعلق بشجر الزيتون المتقلب إنتاجه بحسب كمية الأمطار السنوية، هذا بالإضافة إلى الأراضي التي تم الاستيلاء عليها لإقامة المستوطنات على أعالي الجبال. قامت سلطات الاحتلال باستهداف أشجار الزيتون، فقد تم تدمير مساحات كبيرة من الأراضي المزروعة بشجر الزيتون لبناء المستوطنات في بداية الأمر، ثم تطور الأمر مع دوام الاحتلال لشق الطرق الالتفافية وبناء الجدار العازل في السنوات الأخيرة. استهداف أشجار الزيتون كان عقابًا للمزارع الفلسطيني من جهة، وتدميرا للاقتصاد الوطني الفلسطيني من جهة أخرى. فتعرضت بساتين الزيتون المنتجة حول المستوطنات للكثير من الحرائق والاقتلاع والتخريب من قِبل المستوطنين. يقدر عدد أشجار الزيتون المنتجة التي اقتُلعت منذ عام 1967 بأكثر من 800,000 شجرة بحسب إحصائية لوزارة الاقتصاد الوطني الفلسطيني ومعهد البحوث التطبيقية في القدس 2001[1]، هذا بالإضافة إلى المضايقات من قبل جيش الاحتلال للمزارعين في أوقات الحصاد منذ بداية الاحتلال إلى يومنا هذا، مما يعيق المزارعين عن تأدية

(1) المصدر السابق، ص6.

عملهم، وبالتالي يؤدي إلى انخفاض حاد في الإنتاج، كما أن إنتاج الزيتون هو إنتاج متذبذب أحيانًا بحسب كميات الأمطار السنوية. تقدر الإحصائيات أن إنتاج الزيتون انخفض من معدل 23,000 طن خلال السنوات 2000-2004، إلى 14,000 طن للسنوات 2007-2010، كما أن إنتاجية زيت الزيتون في فلسطين لا تزيد على 20 ألف طن سنويًّا في احسن الأحوال، في حين أن بلدًا كإسبانيا تتصدر قائمة أكبر الدول المنتجة للزيت في العالم، إذ إنها تنتج ما يزيد على مليون طن سنويًّا[1]، فعلى الرغم من صغر مساحة فلسطين بالمقارنة مع الدول المنتجة الأخرى إلا أن زيتها يتمتع بجودة عالية في النوعية والجودة ولذة الطعم، ما يجعله مطلوبًا في أغلب الأوقات.

ثانيًا: هناك انكماش هائل ومتسارع لمساحات الأراضي الفلسطينية المزروعة في الضفة الغربية وقطاع غزة، ليس فقط بسبب سياسات دولة العدو الصهيوني الرامية إلى نهب الأراضي والمياه وسائر الموارد الطبيعية، بل بسبب السياسات الفلسطينية الرسمية والأهلية غير الجذرية تجاه الأرض والإنتاج الغذائي. يذكر جورج كرزم، ئيس تحرير مجلة آفاق البيئة والتنمية، أن المشهد الزراعي الفلسطيني أصبح أكثر سوداوية في منتصف سنوات التسعينيات، وبالتحديد في بداية عهد اتفاقية أوسلو، فقد كانت الأراضي الزراعية في الريف الفلسطيني تبلغ 1,830,000 دونم

(1) نفس المصدر السابق ص5.

بحسب إحصائية للجهاز المركزي الفلسطيني، في حين تقلصت تلك الأراضي إلى 932,000 دونم عام 2011[1]، كما يشير كتاب فلسطين الإحصائي السنوي لعام 2015 إلى أن نسبة الأراضي المزروعة قلت بما يعادل 49٪ خلال خمسة عشر عامًا. وجاء هذا الهبوط في المساحات المزروعة بالمحاصيل الاستراتيجية، مثل المحاصيل الحقلية والخضروات التي بدورها أدت إلى الإخلال بالأمن الغذائي الفلسطيني، وانحراف كبير وخطير على إنتاج الغذاء المتنوع والمكتفي ذاتيًّا للريف الفلسطيني، وجعلته مكشوفًا أمام السوق الإسرائيلية التي أغرقت منتوجاتها من خضروات ومحاصيل مختلفة السوق الفلسطينية وبالأسعار التي تفرضها دولة العدو الصهيوني. وبذلك فإن نسبة الاكتفاء الذاتي الغذائي (الإنتاج/ الاستهلاك) ازدادت سوءًا في السنوات الأخيرة، مما أدى إلى ارتفاع خطير في حجم الأسر المفتقرة للأمن الغذائي بدرجة أساسية وخاصة في قطاع غزة المكتظ سكانيًّا.

ثالثًا: فرضت سلطات الاحتلال الكثير من القيود على المدخلات الزراعية الأساسية، من سلع ومواد خام ومعدات وقطع غيار تستخدم لأغراض مدنية، ويمكن أن يعاد استخدامها في معدات تهدد الأمن الإسرائيلي، كما فرضت القيود على المواد الكيماوية والأسمدة، وبالتالي

(1) كتاب فلسطين الإحصائي لعام 2015.

انعكس ذلك على الإنتاج الزراعي ككل، خاصة في الريف الفلسطيني. إن الأسمدة المستخدمة غير كافية لتحسين الإنتاج واستمراريته بنجاح.

رابعًا، شح المياه: أثّر الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية والقطاع في الحد من الاستفادة من المياه. إذ تشير الإحصائيات إلى أن ما يستهلكه الفلسطينيون في الزراعة يعادل عُشر ما يستخدم لأغراض الزراعة في دولة الاحتلال، وكذلك يبلغ ما يستخدمه الفرد داخل دولة العدو ما يقارب خمسة أضعاف ما يستهلكه الفرد الفلسطيني في الضفة الغربية. وتعتبر مصادر المياه الرئيسية في الأرض الفلسطينية المحتلة هي نهر الأردن والينابيع والمياه الجوفية. فنهر الأردن من أهم المصادر التي حُرم منها الفلسطينيون جراء الاحتلال، ففي خطة المياه الموحدة لوادي نهر الأردن لعام 1955، اعتُبرت الحصة السنوية الفلسطينية البالغة 257 مليون متر مكعب جزءا من الحصة الأردنية البالغة 770 مليون متر مكعب[1]. وقد حُرم الفلسطينيون من الوقوف المائية منذ الاحتلال الغاشم بسب مصادرة سلطات الاحتلال للأراضي المحاذية لنهر الأردن لغاياتها الأمنية. وجاء في أحد التقارير الصادرة عن البنك الدولي أن 35٪ فقط من الأراضي الفلسطينية القابلة للري تُروى فعلًا، وهو ما أدى إلى التراجع الكبير في مساحة الأراضي الممكن الاستفادة منها، في مقابل الزيادة في حجم

(1) المصدر السابق.. الفصل الثالث «شح المياه يوهن قطاع الزراعة الفلسطينية»، ص29

الزراعة في حدود دولة العدو نتيجة لمصادرتها حقوق المياه الفلسطينية جراء زيادة حصتها للمياه التي أصبحت بحدود 770 مليون متر مكعب في السنة. فلو كانت الحصة الفلسطينية تستخدم بالكامل لزاد الإنتاج الزراعي الفلسطيني زيادة ملموسة. وهذا ينسحب أيضًا على مياه الينابيع التي تعتبر مصدرًا هامًّا من مصادر المياه في الضفة الغربية، والبالغ عددها ما يقارب 400، فقد بلغ حجم المياه المنبثقة منها ما يقارب 21,3 مليون متر مكعب، وهو يتفاوت بسب التباين في منسوب هطول الأمطار السنوية. تتحكم سلطات الاحتلال وتمنع الفلسطينيين من الاستفادة من هذه الينابيع وتطويرها، إذ تُقدَّر كمية المياه الجارية التي تصب في نهر الأردن بما يقارب 100 مليون متر مكعب سنويًّا، ولو أمكن الاستفادة من هذه الكمية لاستطاع الفلسطينيون الري والشرب. كما أسهم الاحتلال بمصادرة العديد من الأراضي التي تحتوي على عدد وفير من ينابيع المياه لإقامة المستوطنات. فيقدر أن ما مجموعه152 ينبوعا وقعت في قبضة دولة الاحتلال مما أسهم في تقليص الأراضي الزراعية وهجر الزراعة[1].

أما المياه الجوفية فتبلغ كمية إعادة تغذيتها سنويًّا في الأراضي الفلسطينية المحتلة ما يقارب 734 مليون متر مكعب في الضفة والقطاع، وتشمل موارد المياه الجوفية في الضفة الغربية ثلاث طبقات رئيسية، لكن الزيادة المطردة في كمية الملوحة لتلك المياه تحول دون استخدامها للري

(1) المصدر السابق، ص30.

والاستهلاك البشري. وفي بعض المناطق تلوثت المياة الجوفية في مياه المجاري غير المعالجة[1]. كما تعجز السلطة الوطنية الفلسطينية عن إصلاح محطات معالجة المياه لقلة مواردها. وبسبب القيود الإسرائيلية على موارد المياه جُعلت دولة العدو من يتحكم في مصير الفلسطينيين وتطورهم كإجراء مجحف في استمرار استنزاف المياه الجوفية لصالحها. إذ يأخذ الإسرائيليون أضعاف ما اتفق عليه، مما يضطر الفلسطينيين إلى استيراد أكثر من 50٪ من حاجتهم من دولة العدو لسد النقص الحاصل. فعلى سبيل المثال وبسبب القيود الإسرائيلية المفروضة على موارد المياه الفلسطينية وتحويلها إلى المستوطنات الإسرائيلية، لا تمثل الزراعة المروية سوى 2,3٪ من مساحة الأراضي المزروعة في الضفة الغربية، رغم أن الاراضي المروية أكثر إنتاجًا من الأراضي المطرية بـ 15 ضعفًا في المتوسط، كما أن نسبة 2,3٪ من الأراضي المروية تشكل أيضًا ما نسبته 50٪ من الناتج الزراعي في الضفة الغربية، مما يثبت أن هناك قدرة هائلة غير مستغلة للإنتاج الزراعي الفلسطيني بسبب كافة الظروف المجحفة المحيقة بها.

لقد اعترف المجتمع الدولي بأزمة المياه في فلسطين، وبمسؤولية دولة الاحتلال عنها، وشدد على أهمية حماية حقوق السكان الفلسطينيين واعتبار ذلك من المقومات الأساسية لحل الدولتين المقترح، لكن دولة

(1) المصدر السابق، ص31.

العدو لا تكترث كالعادة بالمواثيق الدولية، وتضرب عرض الحائط ما لا يتفق مع سياساتها الاستيطانية والعدوانية بحق الشعب الفلسطيني.

خامسًا: الأضرار البيئية، فقد ألحقت تأثيرات الاحتلال المباشرة وغير المباشرة العديد من الأضرار بالبيئة في الأرض الفلسطينية المحتلة، خاصة في القطاع الزراعي، وذلك من خلال بناء المستوطنات والطرق الفرعية واقتلاع الأشجار وإلقاء النفايات المنزلية والصناعة الصلبة وبعض النفايات السامة والخطرة بيئيًّا من قِبل المستوطنين في الأراضي الفلسطينية، كما أن تحويل مجرى نهر الأردن وضخ المياه منه قد أثر في حوض النهر بأكمله وفي البحر الميت أيضًا. هذا بالإضافة إلى التدهور البيئي نتيجة قيام المستوطنات بتصريف مياه المجاري الخاصة بها في الأراضي الفلسطينية، فتشير إحدى الإحصائيات الصادرة عن سلطة الجودة الفلسطينية للعام 2010 إلى تصريف ما يعادل 106 ملايين متر مكعب في السنة من مياه المجاري في البيئة. وتشير إحصائية أخرى إلى أن المستوطنات الإسرائيلية تصرّف سنويًّا ما يقارب 35 مليون متر مكعب من المياه غير المعالجة في البيئة المحيطة مما يحيق الضرر بالأراضي الفلسطينية ويلوّث مصادر المياه، ويهدد صحة المجتمعات المحلية بأكملها[1].

(1) تقرير سلطة الجودة الفلسطينية لعام 2010.

سادسًا: الزراعة البديلة، وهي زراعة بعض المحاصيل الكمالية، والترويج لمشاريع إنتاج محاصيل الصادرات الزراعية المدعومة ماليا من منظمات دولية مثل «الفاو» (منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة). وتنفّذ مثل هذه المشاريع بالتعاون مع بعض المنظمات غير الحكومية المحلية. وتسمى المحاصيل المعدة للتصدير المحاصيل ذات «القيمة العالية». بل إن القائمين على هذه المشاريع يعتبرونها معززة لعملية «الاعتماد على الذات»، علما بأن السلع المصدَّرة تعتبر سلعا زراعية كمالية مثل الفراولة والورد بأنواعه، إضافة إلى الأعشاب الطبية. وتسوّق هذه السلع وتباع إلى هولندا، وعبرها إلى بلجيكا وسويسرا ولوكسمبورغ عن طريق دولة العدو الصهيوني على حساب الأمن الغذائي الفلسطيني، إذ إن هذه المشاريع تهدف إلى الإضرار المباشر بالاقتصاد الفلسطيني وبدعم من المنظمات غير الحكومية. ويعود الأصل في تشجيع هذه الزراعات الكمالية إلى دولة الاحتلال منذ أواسط الثمانينيات حين شجعت تلك الزراعات لتكون بديلًا عن الزراعات الأساسية من الحمضيات والخضروات والزيتون والقمح وغيرها، فقد قامت وزارة الزراعة الإسرائيلية باستثمار مئات الملايين من الدولارات لزراعة أكثر من 100 ألف دونم في صحراء النقب، لزراعة كميات كبيرة من الحمضيات والزيتون والخضروات والقمح والورد لغايات التصدير للسوق الأوروبية التي تجد لها رواجًا كبيرًا.

ففشل السياسات والتوجهات الزراعية التي دفعت العديد من المزارعين الفلسطينيين للتورط في المخطط الصهيوني للتوجه نحو الإنتاج الزراعي التصديري، أدى إلى تراجع الإنتاج الزراعي التقليدي بشكل صارخ منذ زمن بعيد، وبخاصة منذ انتفاضة الأقصى. كان هدف الاحتلال الإسرائيلي من وراء توريط مزارعينا في الزراعة الكمالية وإغرائهم بالتخلي عن الزراعات الأساسية والتقليدية في النهاية هو تدمير ما تبقى من قطاعنا الزراعي، لصالح تصدير إسرائيل لنفس المحاصيل التي أُقْنِعَ المزارعون الفلسطينيون بالتخلي عنها.

كما أن دولة الاحتلال والجهات الغربية التي شجعت مزارعينا وبعض المسؤولين الفلسطينيين على زراعة الزهور، عملت هي نفسها في ما بعد على إبادة هذا القطاع، لأن الأولوية أصبحت للزهور الإسرائيلية في النقب وغيرها من المنتجات الزراعية. لذلك فإن ما حصدناه مزيد من التشويه للاقتصاد الوطني الفلسطيني وإفقار وتجويع لمزارعينا. فقد وضعت دولة العدو القيود على تلك الصادرات، وبالتالي تلفَ معظم الإنتاج الزراعي الكمالي الموجه للتصدير إلى أوروبا وإلى دولة الاحتلال كأزهار القرنفل والتوت الأرضي في قطاع غزة بسبب الحصار والإغلاق. ما أدى إلى تضرر المزارعين الذين حولوا أجزاء كبيرة من أراضيهم للزراعات التصديرية، ودفع جزءا كبيرا منهم للعودة إلى زراعة منتجات أساسية أقل عرضة للتلف والمخاطرة ويسهل تخزينها ويطلبها السوق المحلي

(كالبطاطا والبصل والباذنجان والخيار وغيرها)، علما بأن المردود الربحي لهذه المنتجات أقل من الزراعات التصديرية.

فالذين يراهنون على الصناعات التصديرية، وكأننا نعيش في بلد حر وذي سيادة على أرضه! يغيّبون حقيقة أن دولة العدو هي من يتحكم في السوق وحركة الصادرات والواردات التي تتحرك عن طريقها وبموافقتها لأنها تسيطر على المعابر والحدود. فحركة الاقتصاد الوطني الفلسطيني مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالاقتصاد الإسرائيلي.

سابعًا: قلّ عدد المزارعين بشكل ملحوظ، خاصة من الشباب الذين انصرفوا إلى التعليم وامتهنوا العديد من المهن الأخرى خاصة بعد اتفاقية أوسلو ووجود السلطة الوطنية الفلسطينية التي وفرت من خلال وجودها العديد من الوظائف في الوزارات والمؤسسات التابعة لها، هذه الفرص من الوظائف للفلسطينيين صرفتهم عن الزراعة في سبيل الحصول عليها، واقتصرت الزراعة على القلة التي لم تأخذ قسطها الكافي من التعليم، أو الذين لم ينالوا حظهم من الوظائف الحكومية المختلفة. ونتيجة لقلة رأس المال لم تتطور أساليب الإنتاج وفقًا للتطور والتحديث الذي طال المجال الزراعي بدخول الآلات الزراعية التي سهلت عملية الإنتاج الزراعي، وزادت الوفرة في المحصولات، وطورت واستصلحت العديد من الأراضي، وهذا ما استطاع الكيان الصهيوني استغلاله بشكل ملحوظ. بينما تراجع الإنتاج الفلسطيني في مقابل إنتاج دولة الاحتلال فأصبحت حصتها من الإنتاج الزراعي والتصدير أعلى بكثير من الإنتاج والتصدير

الفلسطيني للزيتون وكافة المنتوجات الأخرى. والزراعة في دولة الكيان الصهيوني أحد القطاعات الاقتصادية الهامة، إذ تشكل 2,5٪ من مجموع الناتج المحلي و3,6٪ من صادراته، كما تمنع دولة الكيان توريد المنتوجات الزراعية الفلسطينية إلى الداخل إلا بإذن من الحاكم العسكري. وكما هو معروف، لم يتمكن المزارعون الفلسطينيون في ظل الإتفاقيات الإسرائيلية – الفلسطينية الاقتصادية والسياسية الكولونيالية، من الاستفادة من الفرص والوعود النظرية الوهمية التي توفرها «التجارة الحرة» التي تتمتع بها فعليا منتوجات دولة الكيان لوحدها، وباتجاه واحد (من دولة الاحتلال إلى السوق الفلسطيني). كما تراجعت الصادرات الفلسطينية بشكل عام، بين عامي 1992 و2010 إلى أكثر من النصف. وبالرغم من كون الضفة الغربية وقطاع غزة منطقتين زراعيتين، بل شكلت الزراعة تاريخيا أهم قطاع اقتصادي فيهما، إلا أن معظم الفلسطينيين، خاصة في المدن، يستهلكون المنتجات الزراعية من دولة الكيان التي تغرق الأسواق الفلسطينية، علمًا بأنها تمنع المنتجات الفلسطينية عموما من الوصول إلى أسواقها. وهذا يعني أن الاحتلال الصهيوني فرض ويفرض «تنافسا» قسريا غير متكافئ بالمطلق بين وارداته الزراعية المدعومة والمنتجات الفلسطينية المكشوفة، مما يولد أزمة تسويق فائض الإنتاج المحلي في السوق المحلي، وذلك بسبب انكشاف هذا الإنتاج وحرمانه من الحماية الوطنية والرعاية وعدم منحه الأولوية في التسويق المحلي.

وبنظرة عامة على واقع الحياة في الريف الفلسطيني نتبين حجم هذا الاختلاف حتى في الأشياء الصغيرة، فمثلًا، اختفى قسم كبير من الدواب، فقد كانت تستخدم في الزراعة واستُبدلت بالتركتورات، ولم تتطور كثيرًا أساليب الزراعة لعدم المقدرة على محاكاة التقنيات الحديثة في الزراعة، ولتضييق الخناق على المزارعين من قبل سلطات الاحتلال، الأمر الذي أدى إلى قلة الاهتمام بالزراعة بشكل تدريجي.

اختفت الحواكير الصغيرة على الأغلب، التي كان يزرعها الجيل السابق من أجدادنا بكل ما لذ وطاب من الفاكهة والخضروات البلدية، وبهذا اختفت ظاهرة الاكتفاء الذاتي في مونة البيت السنوية من الخضار وبعض من أنواع الفاكهة كالتين والمشمش والعنب والتوت والصبر والرمان، والحبوب كالقمح والشعير والحمص والعدس والفول. وهذا ينطبق أيضا على شجر اللوز الذي امتاز بكثرته في المنطقة، فتبدل البشر واختلفت علاقتهم بالأرض وعلاقاتهم بين بعضهم بعضًا. وبالنتيجة قل الاهتمام بالزراعة ككل من قبل الغالبية العظمى من سكان القرى. وحتى لا نعمم فعلى الأغلب هناك بعض من الجيل الحالي ما زال يزرع ويأكل مما يزرع، لكنهم قلة ولا يمثلون ظاهرة ولا يسهمون في رفد السوق المحلي بالخضار والفاكهة. فأصبح سكان القرى يشترون حاجتهم من الخضار والفاكهة من الباعة المتجولين الذين يموّنون كافة سكان البلدة بما يحتاجون من خضار وفاكهة على مدار السنة. وهذه الحال تنطبق نوعًا ما على القرى المجاورة وإن كان إنتاجها الزراعي أكثر قليلًا، إلا أن عدد

سكانها قد تضاعف عما كان في السابق، وبالتالي تلجأ هي الأخرى بدورها إلى سد الحاجات الضرورية عن طريق شرائها من الباعة المتجولين أو المحلات التجارية. وهنا نستشعر تغيرًا آخر في حياة الريف؛ فقلة الاهتمام بالزراعة وهجرتها نتيجة لتخلف أدوات الإنتاج ووسائله أدى بالضرورة إلى هذا التغير الملحوظ الذي طرأ على علاقات الإنتاج، والنتيجة كانت أن تغيرت البنية الرئيسية للريف الفلسطيني ككل. إن الضعف الذي أصاب قطاع الزراعة من أهم القضايا التي أدت إلى تفاقم المشاكل التي تواجه الريف الفلسطيني، لذا من الواجب اتخاذ الإجراءات اللازمة للنهوض بهذا القطاع الحيوي القادر على رفد الاقتصاد الفلسطيني بالمال الكافي والاكتفاء الذاتي من المنتوجات الزراعية في السوق المحلية، وهو ما يعتبر من المسائل الوطنية الهامة التي تسترعي الانتباه. فالخيار الرأسمالي بالتملك الخاص للأرض من جانب الأقلية وإقصاء الآخرين، بسبب الهجرة الكثيرة للسكان الريفيين إلى المدن الفلسطينية الأخرى، أو اختيار البقاء خارج الوطن نتيجة لظروف الاحتلال، أسهمت وتسهم بشكل مباشر في الابتعاد عن الزراعة في الأساس. وهذا ما نراه جليًّا في تنامي ظاهرة بيع الأراضي في الآونة الأخيرة لصالح الطبقات الغنية من سكان البلدات نفسها أو من خارجها، التي تسعى هي بدورها إلى ترسيخ وجودها الاقتصادي والتوسع بالمشاريع الخاصة بها على حساب الأغلبية الصامتة، هذا في غياب القوانين الرادعة التي يجب أن تسنَّها السلطة الوطنية الفلسطينية للحفاظ

على الأراضي الزراعية وعدم تركها عرضة لاصحاب رؤوس الأموال الذين يشوهونها بإقامة مشاريعهم التجارية المختلفة عليها من مصانع أو محال تجارية أو أبنية.

أما بخصوص الأشجار المثمرة المعمرة كشجر التين والزيتون واللوز، وهي من السلع الوطنية التي تميزت بزراعتها كافة القرى الفلسطينية، فقد قل إنتاج كافة المحاصيل الزراعية منها بشكل ملفت للنظر، وابتعد العديد من الناس عن قطف ثمار أشجارهم بأنفسهم، خاصة من الأجيال الحديثة، على الرغم من أن قطف ثمار الزيتون -على سبيل المثال لا الحصر- كان من العادات القديمة والوطنية وما زال كذلك نوعًا ما، فهو عرس وطني يتشاركه الجميع كبارًا وصغارًا من الرجال والنساء على مر الأجيال عبر عقود من الزمان، وجرت العادة بأن تقفل المدارس أبوابها لعدة أيام لهذا الغرض. وأكاد أجزم بأن ما لدينا من الشجر المعمر القديم هو في تناقص مستمر نتيجة لقلة زراعة المزيد من تلك الأشجار من جديد، كما تسبب الزحف العمراني إلى المناطق الزراعية وإزالة الأشجار المعمرة بغية البناء وعدم إعادة زراعتها إلى تناقص مستمر في أعداد تلك الأشجار، وهذا ينطبق على كافة المناطق بلا استثناء. وأعتقد بأنه من الضرورة بمكان أن يكون هناك تشريع واضح وصريح من قِبل السلطة الوطنية الفلسطينية بمنع قطع الأشجار المعمرة بتاتًا، وفرض غرامة مالية باهظة على من يقوم بذلك، والحد من الزحف العمراني على المناطق الشجرية، والعمل على إعادة زراعة تلك الأشجار

المعمرة بدلًا من قلعها بتاتًا إن اقتضت الضرورة، وضرورة التزام قوانين التنظيم ومتابعة البلديات لذلك، وتخصيص أماكن سكنية وأخرى زراعية وصناعية وغيرها وذلك للحد من ظواهر التلوث والإزعاج للسكان المحليين. وذلك على العكس مما يجري الآن إذ تقف مجالس البلديات عاجزة عن تنظيم حركة البناء والتراخيص بشكل قانوني، بل تسهم في الخطأ عبر إصدار تراخيص لا تلتزم باللوائح والقوانين للمتنفذين من الأغنياء أو أصحاب النفوذ والمراكز، ولا تتخذ الإجراءات الرادعة بحق المخالفين، كما تقف الحكومة الفلسطينية أو بمعنى أدق السلطة الوطنية الفلسطينية بموقف المتفرج، وكأن الموضوع لا يعنيها بتاتًا، مع أن قضية الزحف العمراني -على وجه الخصوص- على المناطق الزراعية وعدم تنظيم القرى هي مسألة وطنية بحتة، وتخص الأمن الوطني الغذائي الفلسطيني تحديدًا، وهو ما تطرقنا له سابقًا.

في هذه الأيام لم يعد إنتاج المحاصيل الموسمية كافيًا في كافة القرى، بل أصبح قسم لا يستهان به من الناس وللأسف لا يكتفون بما تنتجه الأرض لهم، بل يشترون حاجاتهم من الزيت والزيتون والحبوب والفاكهة والخضار التي تم ذكرها سابقًا. فقد كان الاتجار بالزيت والزيتون وخشب الزيتون من السلع الرئيسة التي يعتاش عليها الكثيرون من سكان الريف، فتقلصت مع هذا الواقع الجديد

تتحمل السلطة الوطنية الفلسطينية المسؤولية المباشرة تجاه الريف الفلسطيني، وعليها أن تتبنى مسألة تطوير الريف الفلسطيني وإعادة الروح

له عن طريق تطوير الخطط والبرامج التي من شأنها أن تسهم بشكل فاعل في العملية التنموية، وتعطي هذا القطاع حقه بالكامل. من أجل أن يتحقق ذلك يجب أن تؤخذ عملية تطوير الريف الفلسطيني على محمل الجد، وأن تتبناها كقضية وطنية صرفة في نضالها ضد الاحتلال الصهيوني، وأن تضع كافة المشاكل المتعلقة بتطور العملية الزراعية نصب أعينها في مفاوضاتها مع العدو الصهيوني، لإجباره على الالتزام بكافة المشاريع والشرائع الدولية وحصص المياة المتفق عليها من أجل إعادة استصلاح المزيد من الأراضي وريها. إن الاهتمام بهذا القطاع الحيوي سيشكل مصدر دخل كبير للسلطة الوطنية الفلسطينية، مما سيخلق المزيد من فرص العمل التي من شأنها أن تحد من الهجرة المباشرة للشباب خارج حدود الوطن، وسيعمل على تحسين الأوضاع المعيشية للناس، وسيقلل خطر الانزلاق نحو الإفقار الممنهج الذي يمارسه العدو بالتضييق على الفلسطينيين وحملهم على مغادرة البلاد. ففلسطين دولة صغيرة المساحة وذات موارد محدودة وما تزال تحت الاحتلال، لكنها دولة زراعية بالدرجة الأولى كما ذكرنا سابقًا، وتتمتع بخصوبة أراضيها وبوجود الموارد المائية الكافية لاستصلاح تلك الأراضي والاستفادة منها بشكل مقبول يرفد الاقتصاد الوطني الفلسطيني. فالقطاع الزراعي في فلسطين يجب أن يتصدر الأولويات النضالية والأجندات السياسية في الصراع مع العدو الصهيوني من أجل انتزاع كافة الحقوق الكفيلة بالنهوض بهذا القطاع بالشكل المناسب للاقتصاد الوطني الفلسطيني.

بين الماضي والحاضر الكثير من الأحداث والمتغيرات. لقد استوقفني ما شاهدته عيناي، وما حصل في السنوات الثلاثين الماضية وما يجري الآن، وجعلني أُفكر وأبحث واقرأ ما تيسر لي لأفهم حقيقة الأرقام والإحصائيات الكثيرة، والحقائق المتعلقة بتردي الأوضاع في المجال الزراعي وتراجعها بسبب الاحتلال البغيض. كما اطلعت على الكثير من التقارير لعدد من المنظمات الدولية والاقتراحات الواجب اتخاذها من أجل النهوض بالريف الفلسطيني ليكون رافدًا مهمًّا لتطور الاقتصاد الوطني الفلسطيني. بالتأكيد هناك الكثير مما ذُكر في تلك التقارير والتوصيات هام جدًّا وجاد بنفس الوقت، ويعتمد على الكثير من الدراسات العلمية التي تعتمد بدورها على العديد من المصادر والحقائق، لكن تلك التوصيات والقرارات ستبقى حبيسة تلك الدراسات التي توضع في الأدراج ويغلق عليها ولن تراوح مكانها في ظل وجود هذا الاحتلال الذي لن يسمح للفلسطينيين بالتقدم والنهوض بالاقتصاد الوطني. ففلسطين كما ذكرنا سابقًا بحاجه ماسة لتكثيف كافة الجهود والسبل من أجل التخلص من الاحتلال ليتسنى لها النهوض، وهذه المهمة النضالية يجب أن تتبناها السلطة الوطنية الفلسطينية بكافة فصائلها، وأن تتبناها أيضًا كافة أطياف المجتمع، وأن تضعها على سلم أولوياتها في النضال الوطني اليومي لتحقيقها. لا يمكن للشعب الفلسطيني أن يحصل على مبتغاه من دون أن يكون له الحق الكامل في تقرير مصيره والتخلص من الاحتلال.

أما ما يخص العرب الفلسطينيين داخل أراضي 48، فقد بدأت عمليات مصادرة أراضيهم الزراعية وقراهم في زمن الانتداب البريطاني، إذ بلغت الأراضي التي صادرتها سلطات الانتداب البريطاني ما يقارب 58٪ من أراضي فلسطين لغاية عام 1948، وأعطتها للصهاينة من المهاجرين. واستمرت مصادرة الأراضي الزراعية وغيرها من أراضي المشاع في ما بعد حتى أصبحت دولة الاحتلال تسيطر على 93٪ من الأراضي الفلسطينية بما فيها القدس الشرقية المحتلة. فقد فرّغت دولة الاحتلال الريف الفلسطيني داخل الخط الأخضر مع بدايات الاحتلال، فهناك الكثير من المجازر التي ارتكبتها العصابات الصهيونية مثل مذبحة كفر قاسم ودير ياسين وغيرهما بغية القضاء على الشعب الفلسطيني ومصادرة أراضيه بالقوة. وبالفعل، فهناك الكثير من القرى التي سويت بالأرض ومُسحت وهُجّر أهلها بالكامل، وأقيمت مكانها بنايات جديدة وبلدات يهودية، واستغلَّت سلطات الاحتلال أراضي تلك القرى التي كانت تمتاز بخصوبتها في الزراعة لصالحها في محاولة لإعادة تغيير الملامح الجغرافية لها، بتدميرها بالكامل ومحوها وطمس هويتها العربية من أجل تهويدها بالكامل. لهذا فالمناطق الريفية المتبقية من القرى الفلسطينية قليلة، فقد صادرت سلطات الاحتلال مساحات كبيرة من الأراضي وأعطتها للمستوطنين من اليهود، كما تقوم بتضييق الخناق على القرى الفلسطينية المتبقية ولا تسمح للمواطنين من الفلسطينيين بالتوسع والبناء. فبعد عقود من مصادرة الأراضي والسياسات التخطيطية التمييزية، يعيش اليوم

عدد كبير من الفلسطينيين محبوسين في بلدات وقرى مكتظة وليس لديهم مجال للتوسع، في حين تدعم دولة الاحتلال نمو وتوسع البلدات المجاورة من الأكثرية اليهودية. أما الأراضي الزراعية الخصبة التي تمت مصادرتها مثل سهل مرج بن عامر وكافة الأراضي الساحلية الممتدة من يافا إلى حيفا ومن صفد إلى الناصرة مرورًا بطبريا وبيسان وغيرها، فقد وظفتها دولة الاحتلال بشكل جيد واستفادت من إنتاجها الزراعي الذي تسوّقه عالميًّا، بالإضافة إلى ما تفرضه على المزارعين من الفلسطينيين في كافة مناطقهم، خاصة في الضفة الغربية، من زراعة أصناف معينة من المنتجات التكميلية كالورد لتسويقه في الخارج على أنه منتجات إسرائيلية، وإجبارهم على جلب منتجاتهم الزراعية من داخل دولة العدو لسد احتياجاتهم اليومية من الخضار والفواكه. بهذا تتحكم بما يزرعه المزارع الفلسطيني الذي لا يستطيع تصريف بضائعه لأن دولة العدو تتحكم بالمعابر. لقد تم محو نحو 90٪ من القرى الفلسطينية وتهويدها بالكامل. بهذا فحجم الدمار الذي أقدمت علية دولة الاحتلال كان أضعافًا مضاعفة لما حصل بالضفة الغربية والقطاع. لقد محت كافة معالم الريف الفلسطيني داخل أراضي 1948 بتهويده وتحويله بالكامل إلى أراضٍ زراعية يهودية، على مساحات واسعة أخذت مكان عشرات بل مئات القرى التي استغلتها دولة الاحتلال لصالحها. فما تبقى من هذا الريف الفلسطيني الذي يسكنه العرب نزر قليل، وهو بدوره مهدد بالزوال مع دوام الاحتلال العنصري الذي لا يوفر جهدًا في سنه للقوانين التي تتماشى

مع مصالحة المباشرة الرامية إلى خنق العرب وتشريدهم ودفعهم إلى خارج حدود وطنهم.

- واقع الحياة الاجتماعية في فلسطين

عندما نتناول الواقع الاجتماعي للريف الفلسطيني بين الأمس وما اختزنته الذاكرة، واليوم، نرى تغيرًا شاملًا وجذريًّا طرأ على كافة مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتحديدًا إذا تناولنا واقع وطبيعة المتغيرات والأحداث السياسية التي عصفت بالمنطقة العربية ككل، وبفلسطين على وجه الخصوص، إذ سنتبين كيف تغيرت طبيعة هذا الريف وتغيرت خصائصه ومقوماته. وسآتي على ذكر واقع الحياة الاجتماعية في الريف، وتحديدًا في الطيبة وقرى شرق رام الله التي هي واحدة منها، وتكمل إحداها الأخرى، فهي ككل عبارة عن عينة تجسد واقع الريف الاجتماعي الفلسطيني، مع فروقات طفيفة بين قرية وأخرى ومنطقة وأخرى، ففلسطين هي دولة صغيرة من الناحية الجغرافية والتعداد السكاني مقارنة بغيرها من الأقطار العربية الشقيقة، لذلك فإن قراها ومدنها تتشابه إلى حد بعيد في كل شيء، فقرى شرق رام الله أتيح لي معرفتها سابقًا، وتسنت لي رؤيتها وزيارتها الآن بعد سنوات طويلة من الغياب القسري، وأعتقد أنها أعطتني انطباعًا عامًّا يمكن تعميمه على واقع الحياة الاجتماعية في الريف الفلسطيني. وللأسف فإن ظروف الاحتلال وإغلاق الطرق وكثرة الحواجز من قِبل سلطات الاحتلال تعيق الزائر،

وتحرمه في الوقت نفسه من التعرف على الثرى الفلسطيني بيسر وسهولة في زيارة واحدة.

ما لمسته بشكل واضح للعيان أن واقع الحياة الاجتماعية في الريف قد تغير في واقعة شكلًا ومضمونًا. تغيرت قراه بلا استثناء. أما في الشكل فقد تغير الواقع الاجتماعي بين حياة الريف التقليدية وحياة المدينة وواقعها المتمدن، فأصبحت بين هذه وتلك. أما في المضمون فاختلف الواقع الاجتماعي كليًّا لنزوح الناس وابتعادهم عن نمط حياة الريف وتطلعهم نحو الحياة المدنية بلا تحفظ. وفوق ذلك، لعبت دولة الاحتلال دورًا أساسيًّا ومباشرًا في تأخر نمو المجتمع الفلسطيني في عدة نواحٍ، منها المجالات التقنية والزراعية والصناعية وغيرها، فابتعد عن أي تطور طبيعي بحكم الزمن ولم يستفد من مجالات التطور في التقنيات المختلفة، مما أسهم في ركود البنية الاجتماعية والاقتصادية لزمن طويل، فالمجتمع الفلسطيني يتسم بشكل عام بأنه مجتمع زراعي قبلي، تقليدي، وبالتالي فإن هذا التأثير وجد انعكاساته المباشرة على الأسرة، وأوضاعها، إذ عاشت هي الأخرى وبشكل كبير حياة محصورة بالعلاقات الاجتماعية (مع الأقارب) وعلاقات الجوار، وكانت تجد في هذه العلاقات ملاذها واستمراريتها وتفاعلاتها، وابتعدت عن أي نمط من أنماط التفاعلات الحديثة، وحرمت بعض الأسر وأفرادها من التعليم والمشاركة الفاعلة في ميادين الحياة المختلفة. أما التعليم -إن وجد عند الأسر ميسورة الحال- فقد كان مقتصرًا على الذكور فقط ولبعض

المراحل التعليمية، كالمرحلة الابتدائية أو الإعدادية، بحسب وجود المدارس وقربها أو بعدها عن القرية. هذا الواقع ساد في الريف الفلسطيني ردحًا من الزمن إلى أن شهد التعليم شيئًا من التطور في فلسطين بشكل عام بعد بناء المدارس والكليات والجامعات في المدن والقرى. عندها أصبح التعليم إلزاميًّا وتراجعت الأمية، وتزامن ذلك مع التطور التقني والعلمي والتبدل الذي طال كافة مناحي الحياة، فانعكس على شعبنا الفلسطيني أيضًا بقراه ومدنه. إلا أننا يجب أن نعي أن ظروف الاحتلال البغيض تعيق سرعة التطور في المجتمع الفلسطيني مقارنة بالدول الأخرى نتيجة للتضييق على الفلسطينيين، وحثهم على مغادرة وطنهم. فهذه من ضمن سياسات دولة الاحتلال التي تستخدمها كوسيلة من وسائل الضغط على الشعب الفلسطيني لتشريده والاستيلاء على ما تبقى من الأراضي لصالح دولة الاحتلال.

ففلسطين وبالرغم من واقعها الاجتماعي الهش والتضييق على الحريات من قِبل دولة الاحتلال كما ذكرنا سابقًا، وتدني مستوى الخدمات العامة نتيجة النقص الكبير في المرافق الصحية والتعليمية، ودمار البنية التحتية، وانتشار ظواهر الفقر والبطالة جراء ظروف الاحتلال البغيض، فإنها تجاهد في تقدمها وتطورها البطيء والتدريجي. فهي في نهاية المطاف، كغيرها من دول العالم الثالث الأخرى، تتطور ولكن ببطء، وفقًا لحالة عدم الاستقرار السياسي وظروف الاحتلال التي ما زالت تعيق حركة البناء والتطور الاجتماعي والاقتصادي، وحركة اجتذاب رأس

المال الأجنبي للاستثمار والاستفادة من التقنيات المتطورة في مجالات عدة، أهمها المجال الزراعي لما تتمتع به فلسطين من أرض خصبة، بالإضافة إلى غيرها من المجالات الحيوية الأخرى. بالتالي أدَّت هذه الظروف العصيبة والقوانين والأنظمة التي تفرضها سلطات الاحتلال، إلى ابتعاد رأس المال الفلسطيني وعزوفه عن الاستثمار داخل فلسطين بشكل عام. هذا بالإضافة إلى العراقيل التي تضعها سلطات الاحتلال على الاستثمار وعلى كافة إجراءات الاستيراد والتصدير من أجل إبقاء السيطرة على السوق المحلية الفلسطينية، وربط الاقتصاد الفلسطيني باقتصاد دولة الكيان الصهيوني، وإغراق السوق الفلسطينية بالمنتجات الإسرائيلية للحد من تطوره. ولا تكتفي سلطات الاحتلال بذلك فقط، بل تعمل جاهدة على صرف الشعب الفلسطيني إلى العمل في مجالات أخرى بما يتناسب مع المصالح المختلفة لدولة الاحتلال. كما أنها تصرف النظر وتسهّل عمل برامج المنظمات غير الحكومية (الـNGOS) المدعومة من الاتحاد الأوروبي، أو مساعدات الـ USAID من الجيش الأمريكي بأهدافها المشبوهة، وإن بدت على شكل مساعدات وهبات للشعب الفلسطيني، خاصة لجيل الشباب الذين توهمهم بدورها بأنها تخلق لهم فرصًا عديدة للعمل، وهي في الواقع تصرف انتباههم عن النضال الوطني، وتحاول توجيه الدفة إلى اتجاه آخر يصب في مصلحة دولة الاحتلال بالدرجة الأولى والدول الرأسمالية المانحة ومصالحها. إن برامج هذه المؤسسات على غاية من الأهمية، ونسلط الضوء عليها

ليدرك القارئ الكريم مدى المكر والخداع عند هذه المنظمات، وأساليبها في تلويث المجتمعات من غسيل للعقول وبث للسموم في عقول الشباب والشابات، وإرساء مفاهيم مطاطة في توجيه الوعي الاجتماعي، واستغلال مفاهيم الديمقراطية والحرية وحثهم على العمل من خلال منظمات خاصة لنشر السياسات العامة في داخل مؤسسات المجتمع المدني، هذا عدا نشر برامج التعقيم للنساء وتحديد النسل للحد من التكاثر الفلسطيني الذي لا يخدم التوازن الديمغرافي داخل فلسطين التاريخية وتعده دولة الاحتلال من القضايا الهامة التي تواجهها. فهذه الإغداقات السخية على المجتمعات الصغيرة والفقيرة على شكل مساعدات تبدو وكأنها بريئة وذات طبيعة خيرية، لكنها ليست كذلك بتاتًا. وهذا ما لمسته من خلال مشاهداتي ونقاشي مع بعض الشباب المضللين والمخدوعين بتلك الهبات السخية من الدول المانحة. وللتوضيح فقد أسهمت الرأسمالية المعاصرة في السنوات الثلاثين الأخيرة من خلال تلك البرامج المضللة المختلفة في خداع العديد من الشعوب في بلدان كثيرة في العالم الثالث، إذ أدت إلى زعزعة السلام الداخلي في داخل تلك المجتمعات من خلال الولوج إلى البنيات الفوقية فيها؛ من أحزاب ومؤسسات اجتماعية وسياسية وخيرية، والعمل من خلالها لتمرير الأهداف الرأسمالية والمخططات المشبوهة لتلك المنظمات، والتي من شأنها ربط تلك التنظيمات بالمؤسسات الاجتماعية، والسيطرة عليها وربطها بشكل مباشر بالأهداف العامة للرأسمالية في استعباد البشر بشكل

مباشر وغير مباشر، من أجل المزيد من النهب والإثراء غير المشروع للدول الغنية على حساب الدول والشعوب الفقيرة. لا تقدم تلك المؤسسات المال بدون مقابل. هذه المؤسسات قادرة على التحكم في السياسة والمزاج العام للناس وتشكيل قضايا رأي عام وتوجيهها لخدمتها وخدمة مصالحها في المنطقة، بما في ذلك تغيير أنظمة الحكم من دون أن تسلط عليها الأضواء. وفلسطين ليست بعيدة عن هذا المجال الحيوي للرأسمالية الدولية، وبالتالي لم تكن خارج اللعبة السياسية التي تحوكها في المنطقة ككل، خاصة في ظل وجود احتلال يساعد ويسهم بشكل فعّال في تلك المخططات التي تهدف إلى زعزعة واستقرار تلك المجتمعات وتمزيقها من الداخل، لكي تكون لقمة سائغة بيد دولة الاحتلال، لتطويعها والنيل من شعبها وإبعاده عن مهمته الأساسية في التصدي للاحتلال، وإلهائه وتقويض دوره النضالي بشكل عام.

ما يهمنا هنا نقاشه، أنه رغمًا عن كافة ظروف الاحتلال والتضييق على حرية الفلسطينيين ومحاربتهم في سبل عيشهم، فإن الريف الفلسطيني شهد تطورًا نسبيًّا في جميع قراه وبلداته -على الأقل- عمرانيًّا، وانتشرت الفلل والمباني لتطال أكبر رقعة ممكنة، وإن بدت تلك المباني فارغة جميعها ولا تدب فيها الحياة، لأن الكثير منها تعود ملكيته للمغتربين من حملة الهويات الفلسطينية، خاصة من العرب الذين يقطنون الولايات المتحدة الأمريكية، وبعض دول أمريكا الوسطى وأوروبا، وبعض الدول الخليجية. وكانوا هُجّروا من قِبل سلطات الاحتلال أو هاجروا بمحض

إرادتهم منذ زمن بعيد، من أجل الحصول على حياة أفضل ولمساعدة أهلهم في الداخل في الصمود والاستمرار في الحياة في ظل ظروف الاحتلال الصعبة. وعلى الرغم من ذلك، ومع زيادة عدد المغتربين والمهجّرين من الفلسطينيين، فقد ازداد عدد السكان في الغالب في الريف الفلسطيني نتيجة الإنجاب والتكاثر الطبيعي. على سبيل المثال هناك قرى تضاعفت عددًا مع مرور الوقت كبعض القرى المجاورة لبلدتنا، كدير جرير، ورمون، وسلواد وغيرها، وقلَّ أو بقي على ما هو عليه البعض الآخر كبلدتنا الطيبة مثلًا.

تغيرت معالم المكان بفارق الزمن، فما لاحظته كان مختلفًا كليًّا عما اختزنته ذاكرتي، فكأني أزور منطقة جديدة مختلفة عما كان في مخيلتي. هُجِرت أحياء بأكملها وزحف العمران إلى المناطق الزراعية، واكتست الأرض وتلونت باللون الأبيض، لون الفلل والمباني المختلفة بدلًا من خضار الشجر، خاصة شجر التين والزيتون المعمر منذ آلاف السنين والذي لا يزرعه الآن إلا قلة قليلة من أصحاب تلك الأراضي. وفي المحصلة شعرت بأني أزور منطقة أراها لأول مرة في حياتي.

اختفت رائحة الطابون بخبزه الساخن كل صباح، فعلى سبيل المثال كان في بلدتنا الطيبة عدد لا بأس به من الطوابين، وما زلت أذكر بعضًا منها، فقد شاهدتها عندما زرت الطيبة مرارًا في سنوات الطفولة مع والدتي في سبعينيات القرن الماضي، إذ امتلكت خالتي طابونًا في بستانها بالقرب من دير اللاتين، كما أذكر طابونًا آخر كان في الحارة الشمالية. وأعتقد أنه

كان هنالك عدد آخر من الطوابين الأخرى التي لا أعرف مكانها على وجه الدقة. بهذا استُبدلت الطوابين بالأفران والخبز الإفرنجي كما هي الحال في المدن. قد يكون اختفاء الطوابين أمرًا طبيعيًّا مع مرور الزمن، ببساطة كانت ظروف وطبيعة حياة الأجداد في زمانهم مختلفة، وبالطبع كانت لديهم طرقهم الخاصة وسبلهم في تأمين الاحتياجات الرئيسية من مأكل ومشرب لأهل بيتهم مقارنة مع حياتنا الآن. فحياة الريف المتمدن في زمننا هذا تبدو أكثر ملائمة لتطور ظروف الحياة العامة في ظل التطور في التقنيات المختلفة التي سهَّلت طرق وسبل العيش بشكل أفضل. لكن مع اختفاء الطوابين لم أر بديلًا بوجود ولو فرن واحد في بلدة كالطبية، نعم هناك بعض الأفران في القرى المجاورة. فقد سألت عن السبب في عدم وجود فرن في البلدة قد يكون وحده كافيا لسد حاجة سكان البلدة يوميًّا، فقيل لي كان هناك فرن واحد ولم يُعرَف سبب لإغلاقه فأصبح سكان البلدة يشترون حاجتهم من الخبز من القرى المجاورة، أو من رام الله. فقلت في نفسي هي بلدة صغيرة يستطيع سكانها تدبر أنفسهم، لكن المسألة لا تتوقف عند اختفاء الطوابين فقط، فقد اختفى الشيوخ والنساء بزيهم الفلسطيني المميز؛ أي اختفى جزء من التراث الاصيل، فلم أر رجالًا قط يرتدون القمباز الفلسطيني (وهو ثوب طويل كان يخاط من القماش الإنجليزي المخصص للبدلات)، وكان يُرتدى في الأيام العادية لوحده أو مع سترة رسمية (جاكيت رسمي) فوقه في المناسبات العامة كالأفراح وغيرها. وكان هناك غطاء للرأس من الشماغ الأبيض السادة أو

الأبيض والأسود أو حتى الأسود السادة مع العقال الأسود الذي يوضع على الرأس فوق الشماغ. فما كان ملفتًا للنظر اختفاء الحطات السوداء كليًّا، وقلة عدد الرجال الذين يرتدون الحطات البيضاء والعقال، فلم أر أحدا من الرجال يرتدي الشماغ سوى النزر القليل. وكذلك الحال بالنسبة للزي الرسمي الفلسطيني للنساء الذي تميز بكثافة تطريزه الفلاحي على الأثواب السوداء أو البيضاء في بعض المناطق، وكان يختلف شكل التطريز من منطقة إلى أخرى. فكل منطقة لها تطريزها الخاص الذي يميز أثوابها، فتتبينه النساء من النظرة الأولى فتستطيع أن تحدد المنطقة التي تنتمي إليها المرأة الأخرى من زيها. وكذلك الحال، كان هناك نوعان من الأثواب، منها ما يتميز بكثرة التطريز وهو للمناسبات الرسمية، وآخر بنفس نوع التطريز لنفس المنطقة لكن بشكل أخف للاستخدام اليومي. كما كانت النساء يضعن على روؤسهن غطاء محكمًا مليئًا بالتطريز وعلى حوافه القطع النقدية الذهبية التي كانت تسمى (الشكة). اختفت تلك الأثواب كليًّا واستبدلت بها الألبسة التي ترتديها النساء في أيامنا هذه. فالنساء الفلسطينيات اللواتي يرتدين هذا النوع التراثي من الملابس هن من الندرة الآن.

اختفت معالم الحياة القروية البسيطة في كافة القرى، ودخلت قرى الريف الفلسطيني ومنها الطيبة في غياهب حياة المدن، مقلّدة إياها في نسخة ممسوخة فأمست بعيدةً كل البعد عن حياة الريف، وبنفس الوقت لم تتطور لتصبح مدنا صغيرة. اختفت الأصالة والبساطة والعفوية،

وتبدلت الحياة الاجتماعية كثيرًا، كما ضعفت أواصر الروابط بين الناس، فأصبح سكان الريف لا يتفاعلون مع بعضهم بعضًا إلا في المناسبات العامة، أو في حالات الأفراح والأتراح. في تلك المناسبات على الأقل يتفاعل الجميع وكأن سكان البلدة عائلة واحدة يعاضدون بعضهم بعضًا، وبانقضاء تلك المناسبة يعود كل منهم إلى مأواه ويغترب. فأصبحوا مغتربين مثلنا، نحن جغرافيًّا، أما هم فداخل وطنهم. وبهذا تنوع مفهوم الاغتراب كغيره من المفاهيم في عصرنا الحالي. وهذا غيض من فيض لتغير ملامح الريف وواقع الحياة الاجتماعية، ما ينذر بالكثير، ويجب العمل على تدارك ما يجري في الريف الفلسطيني والاهتمام بالقطاع الزراعي باعتباره من أهم روافد الاقتصاد الوطني الفلسطيني، ووضع كافة السبل في الحفاظ عليه ووقف التدهور فيه وتنظيمه والاستفادة منه وتشجيع المشاريع التي من شأنها دعمه بشكل مباشر، وتخصيص الميزانيات لذلك، وسن القوانين الرادعة لعرقلة نمو هذا القطاع من خلال برامج ممنهجة للنهوض به الأمر الذي سينعكس مباشرة على واقع الحياة الاجتماعية في الريف ويطورها بشكل أفضل. وهذه قضية وطنية عامة ومسؤولية حكومية وشعبية مشتركة.

أما واقع الحياة الاجتماعية للفلسطينيين داخل اراضي 48 فاعتراه الكثير من التغيير بسبب السياسات المجحفة والمتحيزة ضدهم. يبلغ عدد السكان الفلسطينيين داخل دولة الاحتلال بحدود 20٪ من السكان موزعين على المدن وقرابة 139 قرية، وهي القرى المتبقية التي نجت من

التدمير، في حين أن 531 قرية ومدينة فلسطينية طُهرت عرقيًّا ودمرت بالكامل عام 1948. كما أن هنالك أكثر من 50 مذبحة موثقة حصلت بحق الفلسطينيين في نفس العام. هذه المذابح كانت سببًا مباشرًا في هجرة الفلسطينيين، فمنهم من وصل للضفة الغربية وتوزعوا على قرابة 19 مخيمًا، ومنهم من وصل إلى غزة وتوزعوا على ثمانية مخيمات، ومنهم من وصل إلى الأردن وتوزعوا على عشرة مخيمات، ومنهم من ذهب إلى لبنان وتوزعوا على ما يقارب 12مخيما، بالإضافة إلى البعض الذين وصلوا إلى سورية وتوزعوا على عشرة مخيمات. فكان عدد الفلسطينيين المهجّرين يتراوح بين 700–800 ألف مهاجر. في حين بلغ عدد السكان من الفلسطينيين 156 ألفا، وهم الفلسطينيون الذين بقوا داخل دولة الاحتلال عام 1948 ولم تستطع ترحيلهم. هذا الرقم مع التكاثر السكاني والإنجاب الطبيعي وصل إلى حوالي 1,9 مليون على أبعد تقدير في عام2021 بحسب تقديرات جهاز الإحصاء الفلسطيني المركزي. فقد تزايد عدد السكان من العرب داخل دولة الاحتلال بحدود 12,2 مرة، وهذا التكاثر للوجود العربي يشكل قلقا حقيقيا بالنسبة للدولة اليهودية.

يعاني سكان القرى الفلسطينية الكثير من المشاكل المتعلقة بالسكن والتوسع والتنقل وغيرها، إذ لا تتعدى ميزانية الدولة للقرى العربية 1,7 ٪ من الميزانية المخصصة للمجالس المحلية. ويعاني السكان الكثير من الاضطهاد وسياسات الحرمان من ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية، ومن حق الحصول على الكثير من الوظائف في الدولة. قد تكون هناك قلة

قليلة من السكان العرب استطاعت الحصول على بعض الوظائف لأسباب معينة، لكنها ليست القاعدة، فالعرب محرومون من المشاركة في الكثير من المجالات، بهدف الإبقاء على الطابع اليهودي للدولة.

لقد تغيرت معالم الحياة بالنسبة للفلسطينيين نتيجة السياسات العنصرية التي تمارسها دولة الاحتلال ضدهم، الأمر الذي انعكس سلبًا عليهم. إن المشكلة الحقيقية داخل دولة الاحتلال هي أنه لا يوجد تحديد واضح للهوية والدولة اليهودية، أو حتى من هو الإسرائيلي، وبالتالي فإنه تحت تأثير بأنها دولة يهودية وديمقراطية، فإنه من الضرورة بمكان إعطاء السكان اليهود الأولوية ومن ثم الالتفات للعرب. يعاني الفلسطينيون بدورهم من صراع داخلي بين هويتهم العربية الفلسطينية وجنسيتهم الإسرائيلية، مما يعطيهم شعورا بعدم الارتياح، خاصة ضمن سياسات التمييز والعنصرية بحقهم. حتى إطلاق اسم عرب إسرائيل عليهم من قبل دولة الاحتلال هو وسيلة لطمس الهوية الفلسطينية في محاولة لدمجهم وتحويل انتمائهم إلى ما يسمى «الأمة الإسرائيلية» بحسب تعبيرهم (على الرغم من أن اليهود هم شعوب غير متجانسة وليسوا بأمة). هذا المصطلح يهدف في المقام الأول لعزل فلسطينيي الداخل عن الفلسطينيين في الضفة الغربية والقطاع. ولطالما شجب العرب الفلسطينيون هذا التدمير والسياسات العنصرية ضدهم، فهم لديهم حق التصويت ولديهم 12مقعدًا في الكنيست الإسرائيلي من أصل 120، لكن لم يسبق لأيٍّ من الأحزاب العربية أن شاركت في أي ائتلاف حكومي مع

أنهم يدفعون الضرائب ويتمتعون بالمزايا الاجتماعية التي تمكنهم من تقلد العديد من المناصب، لكن دولة الاحتلال تعي ذلك جيدًا وتعمل دومًا في الحؤول دون وصول أي عربي إلي أي منصب رسمي مهم. كما يحظر عليهم العيش مع اليهود الذين يتمتعون بكافة المزايا كمواطنين يهود إسرائيليين، فقد قامت الدولة الإسرائيلية بمصادرة جميع الأراضي التابعة للبلديات العربية من أجل توطين اليهود، بينما يحظر على العرب الحصول على أي من الوحدات داخل الكيبوتسات لكي لا يتعايش اليهود مع العرب، الأمر الذي يزيد من حدة التناقضات والمشاحنات داخل المجتمع الإسرائيلي ويزيد من معاناة الشعب الفلسطيني، فالموارد الاقتصادية التي توفرها الدولة من أجل تنمية القرى التي يقطنها الفلسطينيون لا ترقى إلى مستوى الخدمات التي توفرها للبلديات المأهولة من اليهود. فمع التكاثر الفلسطيني على مدى العقود الماضية أصبح الفلسطينيون يعانون أكثر في حياتهم اليومية وسبل العيش في ظل السياسات التعسفية لدولة العدو تجاههم. فدولة العدو لا تسعى إلى تطوير المناطق الريفية الفلسطينية المتبقية التي يسكنها العرب في محاولة لخنقهم وإجبارهم على الرحيل والهجرة.

أما في المدن فحدة الصراع مختلفة، هناك تعايش مشوب بالخطر من الجانبين، لكن لا تخلو مشاهد الحياة من المشاحنات بينهم في بعض الأحيان. يسعى الإسرائيليون في المدن للحد من تطور الفلسطينيين، عبر سن القوانين الكفيلة بإعطاء اليهود كل شيء في مقابل النزر اليسير للعرب

الفلسطينيين، وتضييق الخناق عليهم في كافة المجالات عن طريق سن القوانين التعسفية ضدهم من حق التملك والتنقل والإيجار والعمل وغيرها من المجالات للإبقاء على يهودية الدولة. هذا الوضع يُبقي العرب ضمن دائرة ضيقة لكنهم يجدون سبيلهم في العيش والتفوق على كافة الحواجز الرامية إلى تحجيم دورهم كسكان أصليين في البلاد. فقد برع العرب في الكثير من المجالات الفنية والأدبية والإعلامية عن طريق النوادي والمنتديات العربية في حيفا والناصرة التي أصبحت مركزًا إعلاميًّا هامًّا للعرب في السنوات الأخيرة، فبعد أن أغلقت كافة الصحف الفلسطينية أبوابها بعد حرب 1948 ما عدا صحيفة الاتحاد (التابعة للحزب الشيوعي التي أسسها توفيق طوبي عام 1944 ولا تزال تصدر في حيفا)، تأسست العديد من الصحف الأسبوعية في الناصرة وأشهرها وأهمها صحيفة «كل العرب»، وهي الصحيفة الأكثر قراءة وانتشارًا في إسرائيل بحسب إذاعة البي بي سي البريطانية، وعمل في تحريرها لفترة طويلة من الزمن الشاعر سميح القاسم، بالإضافة إلى العديد من الصحف الأخرى ودور الإذاعة الناطقة باللغة العربية، وحديثًا بعض القنوات التلفزيونية الهامة التي تبث البرامج الحوارية والثقافية والاجتماعية والسياسية. كما أسهم الكتاب الفلسطينيون والأدباء والشعراء الذين صمدوا في الداخل بإثراء المكتبة والثقافة العربية بالكثير من المؤلفات الهامة الأدبية وغيرها، من أمثال الشاعرين سميح القاسم، وتوفيق زيّاد، وهما من القامات العالية، وأثرت كتاباتهما الشعرية التي تناولا فيها معاناة

الشعب الفلسطيني في النضال الوطني الفلسطيني ضد العدو الصهيوني. وهناك أيضًا الكاتب والاديب إميل حبيبي ابن حيفا الذي لم يغادرها حتى مماته. فقد عمل في الأدب والسياسة، وكان عضوًا بالكنيست الإسرائيلي فاتخذه منبرًا للهجوم على السياسات الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني في كافة مدن فلسطين التاريخية. وقد تطرقنا للحديث عنه عندما ذكرنا زيارتنا لمدينة حيفا في متن هذا الكتاب.

وبالتالي، فإن نضال الشعب الفلسطيني ضد السياسات العنصرية في الداخل المحتل هو مكمل لنضالات الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع. لذلك فإن مصطلح العرب الفلسطينيين داخل دولة الاحتلال هو المصطلح البديل لعرب إسرائيل، ويجب أن يتداوله الجميع للحفاظ على الهوية الفلسطينية للحد من محاولات طمسها وتهويدها، وهو ما تسعى إليه دولة الاحتلال. ففي ضمن هذه السياسات العنصرية لا يمكن لمثل هذا التعايش أن يتم بتاتا، ولا يمكن الفصل بين الشعب الفلسطيني في الداخل المحتل عن الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع.

- الوضع الاقتصادي الفلسطيني

يواجه الاقتصاد الفلسطيني الكثير من التحديات نتيجة لظروف الاحتلال، إذ تعرقل دولة الاحتلال الوصول إلى الموارد في الأرض والكهرباء والمياه والاتصالات السلكية واللاسلكية وغيرها الكثير من المجالات الحيوية، بحيث تعيق تطور الاقتصاد الحقيقي للدولة

الفلسطينية لتبقي اقتصادها تحت الرعاية والقيود الأمنية الإسرائيلية التي تفرضها بحصارها الجائر على الضفة الغربية وقطاع غزة، كما أنها تعزل القدس الشرقية عن محيطها وتعمل على تقطيع الأراضي الفلسطينية ببناء المستوطنات التي تحد من رقعة الأراضي الزراعية، وتبقيها عرضة للنهب والسلب، مما يضعف الآمال الفلسطينية بالاستغلال الحكيم للأراضي الفلسطينية والاستفادة منها بشكل يدعم الاقتصاد الفلسطيني بشكل مباشر.

تتميز فلسطين بخصوبة أراضيها الصالحة للزراعة ومناخها المعتدل بين دول حوض البحر الأبيض المتوسط، على الرغم من أن دولة العدو كانت قد وضعت يدها على أخصب الأراضي الفلسطينية وكافة الساحل الفلسطيني منذ تأسيس دولتها عام 1948، وتركت أراضي المناطق الجبلية الوعرة للعرب، في حين أن هذه الأراضي هي أرض خصبة أيضًا لكنها بدرجة أقل من المناطق التي سُلبت منذ البداية، ومن ثم يمكن استصلاحها.

يعتمد الاقتصاد الفلسطيني بشكل كبير على دولة العدو في ما يتعلق بالسياسة النقدية وفي توفيرها المصادر للمدخلات الفلسطينية باعتبارها سوقًا للتصدير، وتلك من القيود التي شوهت كثيرًا البنية الهيكلية الاقتصادية في فلسطين وما رافق ذلك من ضعف في القطاعات الإنتاجية ومن ضمنها القطاع الصناعي والزراعي والخدماتي وغيرها. هذا بالإضافة إلى تحكمها في المعابر والحدود والمعايير الجمركية، وكلها محددات

لتطور الاقتصاد الفلسطيني بالشكل الأمثل. فعلى سبيل المثال تفرض سلطات الاحتلال على المزارعين الفلسطينيين زراعة بعض المنتجات الكمالية كالزهور مثلًا، وقد تطرقنا إلى ذكر ذلك عندما تكلمنا عن واقع الإنتاج الزراعي في فلسطين ومحددات الزراعة التي تفرضها سلطات الاحتلال على المزارعين في التبادلات التجارية التي تسوقها دولة العدو في صادراتها وكأنها منتجات إسرائيلية، كما أنها تتحكم في صادرات الإنتاج الزراعي بتحكمها في المعابر، فتحظر حركة التصدير للدول المجاورة والاستيراد للمنتجات الزراعية الأساسية من الدول المجاورة، ليس ذلك فحسب، بل تعمل جاهدة على تغطية النقص في الغذاء بإجبار الفلسطينيين على شراء المنتجات الإسرائيلية تحديدًا وبالأسعار التي تحددها دولة الاحتلال.

إن عدم الاستقرار السياسي داخل فلسطين يجعل من الصعوبة بمكان مواجهة كافة التحديات التي تتربص من الناحية الاقتصادية، فلو القينا نظرة سريعة على نسبة مساهمة القطاعات المختلفة في الناتج المحلي الإجمالي لدولة فلسطين عبر الجدول التالي لاكتشفنا أن هذه الأرقام متواضعة جدًّا مقارنة بالناتج المحلي الإجمالي لدولة العدو البالغ عشرات أضعاف الناتج المحلي الإجمالي الفلسطيني، بصرف النظر عن النمو السنوي في الاقتصاد المحلي بحسب جهاز الإحصاء الفلسطيني. (الناتج المحلي الإجمالي GDP لدولة فلسطين بحدود 16,5 مليار، في حين أن مثيله لدولة الاحتلال 440 مليارا). إن الجدول التالي يوضح

نسبة مساهمة الأنشطة الاقتصادية في الناتج المحلي الإجمالي بحسب القطاع للعام 2019:

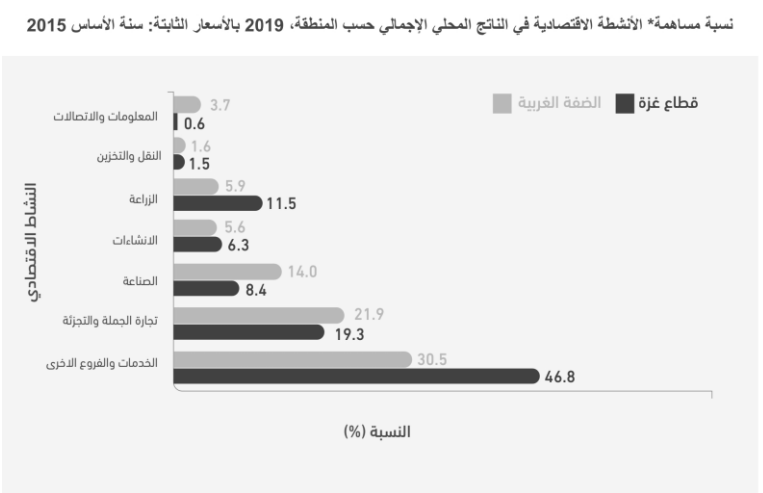

الأنشطة الاقتصادية في الناتج المحلي[1]

يظهر الجدول أعلاه أن قطاع الخدمات وتجارة الجملة والتجزئة يحتلان النسب الكبرى في المساهمة في الناتج المحلي الإجمالي للعام 2019، على اعتبار أن هذا العام كان أداؤه الاقتصادي أفضل بالمقارنة بالعامين التاليين نتيجة ظروف الإغلاق جراء جائحة كورونا التي أضرت

(1) تقرير عن أداء الاقتصاد الفلسطيني لعام 2019، التعداد الزراعي الفلسطيني/ الجهاز المركزي للإحصاء، ص20.

في الاقتصاد العالمي ككل. يشير الجدول إلى أن قطاعي الزراعة والصناعة يسهمان بنسب متواضعة على عكس الخدمات. في الواقع لو قمنا بإجراء مقارنة بسيطة لما تشكله القطاعات الحيوية مثل الصناعة والزراعة في اقتصادات الدول المجاورة ولنفس العام للأردن مثلًا، نجد أن الأردن ناتجها المحلي الإجمالي بحدود 45 مليارا، وأن النسب الكبرى تستحوذ عليها قطاعات الزراعة والصناعات الاستخراجية والصناعات التحويلية والإنشاءات والكهرباء والمياه، ومن ثم تأتي القطاعات الأخرى، مع العلم بأن قطاع الخدمات يشكل نسبة الربع أيضًا بين مجموع القطاعات، لكن قطاعات الصناعات والزراعة والإنشاءات مجتمعية تشكل نسبة 40- 45٪ من الناتج المحلي أي بمعدل ضعفي قطاع الخدمات. هذه ليست قاعدة اقتصادية بالتحديد، هناك بعض الدول الصغيرة في العالم التي يعتمد اقتصادها بالكامل على قطاع واحد مثل السياحة. لكن في الوضع الفلسطيني نرى من الجدول أن قطاع الخدمات يستحوذ على النسبة الكبرى في مقابل ضعف القطاعات الأخرى.

بالإجمال تعتبر فلسطين دولة زراعية من الدرجة الأولى، ويجب أن يشكل قطاع الزراعة رافدًا هامًّا للاقتصاد الوطني الفلسطيني كما أشرنا سابقًا، لكن لا يمكن إغفال الواقع المرير الذي أشرنا إليه أيضًا عندما تحدثنا عن واقع الريف الفلسطيني والصعوبات التي تواجهه، فمع ظروف الاحتلال وشحّ المياه وتحكّم دولة الاحتلال بطبيعة الاستثمارات الزراعية التي تفرضها بدورها على المزارعين، سواء في حظر استيراد

البذور المختلفة، وتقنين استخدام المبيدات، ووضع قيود على استيراد المعدات التقنية اللازمة لتطوير هذا القطاع، يبقى هذا القطاع عاجزًا عن تلبية الاقتصاد الوطني، وتابعًا لدولة الاحتلال. فالاقتصاد الفلسطيني ليس اقتصادًا حرًّا قادرًا على التطور، فأداؤه يعتمد بالدرجة الأولى على دولة الاحتلال التي تبقيه ضمن سيطرتها بالكامل. لذلك فهذا الاقتصاد محكوم بسياسات الحكومة الإسرائيلية في الشأن الفلسطيني ومرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعملية السلمية وطبيعة الصراع العربي – الصهيوني من جهة، ومن جهة أخرى فدولة الاحتلال تفعل ما بوسعها لتقويض انتعاش هذا الاقتصاد، بل التضييق عليه لإبقاء الشعب الفلسطيني طوال الوقت تحت الضغط كوسيلة لاستسلامه وتشريده من أراضيه.

فقد أسهمت دولة العدو بتقويض نمو القطاع الزراعي بتدمير أشجار الزيتون والأشجار الأخرى لإقامة المستوطنات في الضفة الغربية، وهي تحد بذلك من كمية الأراضي الزراعية. وتقف السلطة الفلسطينية عاجزة عن تقديم أي شيء، على الرغم من أنها قادرة على الأقل على سن بعض القوانين الرادعة لاقتلاع الأشجار في المناطق التي تسيطر عليها، وتشجيع زراعة أشجار الزيتون وزيادة رقعة الأراضي الزراعية للتعويض عن حجم الانتهاكات لهذا القطاع.

يعاني الاقتصاد الفلسطيني الكثير من المشاكل التي تتلخص في عجز كافة القطاعات عن تلبية احتياجات الدولة، لذلك يكون النمو في الاقتصاد بطيئًا ومحكومًا بسياسات وسلطات دولة الاحتلال بشكل عام. في حين

جاء تشكيل السلطة الوطنية الفلسطينية في إطار مقيد لها، وأثقلت سلطات الاحتلال كاهلها بمسؤوليات أكبر بكثير من الموارد والحيز السياسي المتاح لها. لهذا لا يمكن أن نرى تحسنًا في أداء هذا الاقتصاد طالما الاحتلال قائم والسلطة الوطنية محاصرة تمامًا وتستخدم النظام النقدي نفسه. فظروف وسياسات دولة الاحتلال هي ما يتحكم بهذا الاقتصاد برمته. ليس ذلك فحسب، بل تساعد على تدهوره أيضًا، وذلك ضمن سياساتها لإفراغ الأرض من الفلسطينيين. فالاقتصاد الفلسطيني يعتمد على المِنح من المجتمع الدولي لإعادة بناء البنية التحتية المحطمة ودعم بعض القطاعات الهشة مثل التعليم والصحة. لذلك لا يمكن لهذا الاقتصاد أن ينتعش من دون إنهاء الاحتلال. من أجل ذلك يجب أن يستمر النضال، وأن تدعم السلطة الوطنية نضال هذا الشعب، وأن تسهم في وضع البرامج التي من شأنها أن تدعم صمود الشعب الفلسطيني وحقه العادل في العيش بوطنه، وتساعد على دعم المشاريع الصغيرة وخاصة الزراعية منها، وتسن القوانين الرادعة لقطع الأشجار، وتشجع العمل الزراعي، وتضع حدًّا لانتهاكات دولة العدو بهذا الخصوص، لا أن تقف بموقف المتفرج وتكون شاهدة على الانهيار من دون أن تتدخل كما نراها اليوم. كلنا يعرف أن إمكانيات السلطة محدودة، لكنها بالنتيجة قادرة على دعم نضال الشعب الفلسطيني فهي سلطة وطنية بالدرجة الأولى مهمتها الرئيسية العمل مع الشعب الفلسطيني على إنهاء الاحتلال وليس العكس.

مراحل تطور الحياة السياسية والحزبية في فلسطين

إن الواقع السياسي في فلسطين قد تغير بفضل التطورات السياسية التي عصفت بالمنطقة ككل منذ سنوات النكبة ولغاية الآن. ناضل الفلسطينيون ضد الاحتلال العثماني الذي اجتاح المشرق العربي في القرن السادس عشر الميلادي والذي استمر حتى الربع الأول من القرن العشرين، فلقد وقعت فلسطين كغيرها من دول المشرق تحت هذا الاحتلال الغاشم وذاق شعبها الأمرين من طغاة العثمانيين وقساوة قلوبهم وممارساتهم الإجرامية بحق شعوب المشرق العربي ككل، وشعبنا الفلسطيني طاله ما طال الشعوب الأخرى في المنطقة. وما إن تخلصنا من وطأة هذا الاستعمار الغاشم حتى وقعنا مجددًا تحت نير الإمبراطورية البريطانية التي تقاسمت المشرق والمغرب العربي بينها وبين فرنسا، ليس هذا فحسب بل تقدمت بريطانيا ممثلة بوزير خارجيتها ومنحت اليهود حق اللجوء إلى فلسطين وتشكيل دولة لهم على أرضها، وهذا ما حصل بالفعل عام 1948. بهذا استمر نضال الشعب الفلسطيني منذ الاحتلال العثماني إلى يومنا هذا في مقاومة المحتل عبر مئات السنين، لم تُثن عزيمتهم، بل على العكس تمامًا ازدادوا صلابة وقوة على مدار الزمان وبتعاقب الأجيال. شكّل هذا الاحتلال الأخير لفلسطين صورة مختلفة كليًّا عن الاحتلالين السابقين، وذلك لطبيعة المحتل الذي

استوطن الأرض الفلسطينية وجعلها موطنًا له مستعينًا بالأساطير التي اختلقها لأرض الميعاد المزعومة، مستغلًا الدعم الغربي له والاعترافات الدولية لدولة الاستيطان التي تشكلت بمباركة الدول الاستعمارية عام 1948، بهذا فقد أعطى لنفسه الحق في استيطانها ومصادرة أراضيها وطرد السكان الفلسطينيين من دورهم وأراضيهم، واستبدالهم بقطعان المهاجرين اليهود من شتى بقاع الأرض، مستغلًا الميثولوجيا اليهودية وأسطورة أرض الميعاد والحق التاريخي المزعوم لليهود في فلسطين. وما هي إلا ترّهات لا أصل لها، لا تاريخيًّا ولا دينيًّا ولا جغرافيًّا كما يدعون. فأرض فلسطين هي أرض عربية سكنها العرب من الكنعانيين في القرن الرابع قبل الميلاد. هم قبيلة عربية هاجرت من الجزيرة العربية واستقرت في بداية الحال على أحد جبال القدس لموقعه المرتفع والأمين الحامي لها من الغزوات. وقد قام الكنعانيون ببناء معظم مدن فلسطين قبل مجيء العبرانيين إلى فلسطين بمئات السنين. فقد بنى الكنعانيون مدن أريحا، ونابلس، وبيسان، وعسقلان، وعكا، وحيفا، والخليل، وأسدود، وبئر السبع، وبيت لحم، وظلت فلسطين تُسمّى أرض كنعان إلى سنة 1200 قبل الميلاد. كما قام اليبوسيون الكنعانيون ببناء مدينة القدس التي سميت «يبوس» في بداية عهدها نسبة لهم.

إن تاريخ الفلسطينيين ضارب في القدم منذ آلاف السنين، وكانت هذه الأرض ولا تزال أرض خير وبركة. لهذا تنازع عليها الكثيرون ومر عليها العديد من الحضارات والاستعمارات المختلفة عبر الزمن، لكنها كانت

وستبقى أرضا عربية سكنها الأجداد الأولون، دافعوا وذادوا عنها، ونحن بدورنا نحمل الراية ولن نستسلم ونستكين أو نفرط بشبر واحد من تلك الأرض الطيبة. لهذا فقد سطر الشعب الفلسطيني أروع الملاحم البطولية في نضاله ضد المستعمر الإسرائيلي، ومنذ الإرهاصات الأولى للوجود الصهيوني في فلسطين، على الرغم من أن فسيفساء الحركة السياسية والأحزاب المشكلة لها قد طالها الكثير من التغيرات في بنيتها الأساسية على مدار الزمن، وتاريخ الصراع العربي الفلسطيني الصهيوني في الأساس يشهد بذلك.

لقد مرت القضية الفلسطينية بتطورات كثيرة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والسياسية، بحيث جعلت التجربة الفلسطينية في مجال تطور الفكر والعمل السياسي كبيرة، خاصة ما يتعلق بالحركة السياسية الوطنية «الأحزاب» التي لها ثقل هام، وكان لها تأثير كبير على واقع الحياة السياسية، كما أسهمت الأحداث المتلاحقة في مسيرة النضال الوطني الفلسطيني بصقل هذه التجارب وتكوين الفكر السياسي الفلسطيني المقاوم على اختلاف الأحزاب السياسية التي بدأت بالتشكل ما قبل النكبة، وقادتها ثُلة من النخب الثقافية والساسة الوطنيين الذين جمعتهم وطنيتهم الصرفة باختلاف المشارب الفكرية التي انطلقوا منها، إلا أنهم اتفقوا على مقاومة الاستعمار البريطاني وما تلاه من الاحتلال الإسرائيلي وتشكيل دولة العدو الصهيوني على التراب الفلسطيني. بدأ الوعي السياسي في فلسطين بداية مبكرة مع الدولة العثمانية، وكان

لفلسطين دور في الدولة العثمانية وكان أهل فلسطين ممثلين في مجلس المبعوثان في إستانبول، كما كان المثقفون الفلسطينيون متابعين للتطورات السياسية حينذاك، وكانت لهم آراؤهم وتوجهاتهم، واتخذوا مواقف ثابتة وحازمة في وجه سياسة التتريك التي مارستها جمعية الاتحاد التركية ضد الثقافة العربية، كما كان لهم مواقف ضد سياسات التجنيد الإجباري للشباب العربي وزجهم في حروب لا علاقة لهم بها تخدم مصالح الإمبراطورية العثمانية آنذاك.

كما تأثر المثقفون الفلسطينيون ورجال الفكر في فلسطين بالتيارات السياسة التي ظهرت بين إخوانهم العرب وخاصة في سورية في هذه الحقبة من الزمن. ولعل أبرز التيارات التي برزت في تلك الحقبة تتمثل بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبدو، وتأثر بها بعض القادة الفلسطينيين مؤيدي مبادئ الإصلاح الشامل في العالم الإسلامي، والدعوة إلى القومية العربية، والوقوف بوجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

من الضرورة بمكان التنويه إلى أن القومية اكتسبت مقامًا مهمًّا لدى الطرفين التركي والعربي، فبقدر ما كان الأتراك متشددين في فرض لغتهم ومارسوا أبشع أنواع العذاب في احتلالهم للمشرق، بادرهم العرب بردة فعل أكثر تمسكًا بالعروبة، وبادروا بإنشاء الجمعيات والأندية السياسية والثقافية السرية والعلنية في سبيل الدفاع عن كيانهم القومي المهدَّد بالزوال. فقد أسس شكري الحسيني جمعية الإخاء العربي العثماني في

القدس عام 1908، وأنشأ لها فروعا في القدس ضم فيها إسماعيل الحسيني وخليل السكاكيني وغيرهم، كما أسهم الطلبة من فلسطين في إنشاء جمعية للطلبة هي «جمعية العلم الأخضر» في الأستانة في شهر أيلول من عام 1912، لتقوية الروابط بين الطلبة في الجامعات العليا وتوجيههم للنهوض بأمتهم، وكان من مؤسسيها عاصم بسيسو ومصطفى الحسيني وشكري غوشة وغيرهم.

أدرك الفلسطينيون خطر الهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ أن اتخذت شكلًا منظمًا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وحصل صدام بين الفلاحين الفلسطينيين والمهاجرين في ثمانينيات القرن التاسع عشر، مما أدى إلى لجوء بعض الأعيان من القدس إلى رفع عريضة إلى الباب العالي يطالبون فيها بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وكان أول ما لفت الانتباه إلى الخطر هجرة الرهبان الكاثوليك الذين كانوا يتابعون النشاط الصهيوني ببالغ القلق. كما شنت الصحف الفلسطينية أنذاك هجومًا واسعًا على النشاطات الصهيونية ونبهت إلى خطورة هجرة اليهود إلى فلسطين. وكانت صحيفة الكرمل الصادرة في حيفا عام 1909 من أوائل الصحف التي شنت هجمة شعواء على الصهيونية بقلم صاحبها نجيب نصار. كما شنت صحيفة فلسطين مقالات عدة عن خطر الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، وتم تأسيس حزب سياسي هو الحزب الوطني العثماني الذي كان يهدف إلى توجيه طاقات الحزب للنضال ضد قانونية الصهيونية والتحذير منها.

مر النضال الوطني الفلسطيني ما قبل النكبة بمراحل متباينة من التصعيد والانكماش ضد الاحتلال البريطاني والهجرة اليهودية إلى فلسطين، ويمكننا أن نقسّم المراحل إلى ما يلي:

- المرحلة الأولى من 1918-1923: نشطت الحركة السياسية الوطنية على مستوى فلسطين في هذه المرحلة مستخدمة النضال السلمي.
- المرحلة الثانية من 1923-1929: تميزت هذه المرحلة بالركود العام قياسًا بالمرحلة السابقة، ولعل ذلك يرجع إلى اقتصار نشاط الحركة الوطنية الفلسطينية على ردات الفعل. وكانت بعيدة عن مبادئ التخطيط والتنظيم وسادت انشقاقات وخلافات وتشرذم سياسي.
- المرحلة الثالثة من 1929-1934: وهي مرحلة النهوض الشعبي للحركة الفلسطينية، فقد شاركت قطاعات وفئات شعبية في النشاط السياسي الوطني من العمال والفلاحين والطلاب المثقفين والطبقة الوسطى. وهي مرحلة الصدام المباشر مع بريطانيا وأسباب ذلك: القمع البريطاني لثورة 1929، وازدياد قوة الحركة الصهيونية وتزايد الهجرة اليهودية الجماعية.
- المرحلة الرابعة، ثورة 1936-1939: وهي سلسلة من الأعمال المسلحة لمقاومة الانتداب البريطاني المساند والمؤيد للهجرة اليهودية وإضرابات عامة ومظاهرات شعبية.

- المرحلة الخامسة، مرحلة الحرب العالمية الثانية والأربعينيات: كان النشاط الحزبي سيئًا وضعيفًا، وذلك لأن ظروف الحرب العالمية كانت قد ساعدت على إضعاف الأحزاب وإخماد الثورات لانشغال بريطانيا في الحرب وعدم رغبتها في تشتيت مجهودها الحربي ضد قوات المحور الذي كانت تقوده ألمانيا النازية.
- المرحلة السادسة، مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية: فقد خرجت بريطانيا منهكة بعد الحرب، وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية الوريث الشرعي للإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية، وحلت محلهما بعد الحرب، وهو ما عرف باسم مبدأ ايزنهاور عام 1957 (كان بديلًا أيضًا لحلف بغداد الذي تم إسقاطه عام 1955). كما أعلنت بريطانيا عن رغبتها في الانسحاب من فلسطين، وهكذا أعطت الفرصة لقطعان المستعمرين لإعلان دولة الاحتلال على القسم الكبير من مدن الساحل الفلسطيني، مما أثار حفيظة العرب، فاشتعلت جذوة النضال من جديد وتم تشكيل العديد من الفصائل المسلحة، مثل الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني الذي أسهم بشكل فعّال في النضال ضد العصابات

الصهيونية واستشهد في قرية القسطل القريبة من القدس في الثامن من أبريل عام 1948[1].

لقد تشكلت العديد من الأحزاب في مرحلة ما قبل قيام دولة الاحتلال وما بعدها، وكانت تلك الأحزاب كثيرة جدًّا ومعظمها تلاشى بسرعة لأنها لم تكن أحزابا عقائدية، ولم يكن هناك فكر متبلور لهذه الأحزاب، فكانت وليدة ظروف معينة منها:

أولًا: أحزاب غير عقائدية، تشكلت هذه الأحزاب نتيجة لظروف معينة ومختلفة ومنها:

- الحزب الوطني العربي الذي تأسس عام 1923، وكانت سياسته تنبع من مواقفه الصلبة ضد سياسة التمزق والتشرذم العربي، لكن من أسباب زواله أنه لم يكن حازمًا في موقفه تجاه إلغاء الانتداب البريطاني، وبهذا لم يلق الكثير من القبول في الشارع الفلسطيني الذي كان يناضل ضد الاستعمار البريطاني، ويطالب بإلغاء الانتداب ورحيل الجيش البريطاني عن أراضيه التي احتلها بموجب اتفاقية سايكس – بيكو عام 1916.
- حزب الزرّاع. تأسس عام 1924 وجاء تأسيسه على يد عدد من الإقطاعيين في الريف الفلسطيني للمطالبة بمساواتهم بأهل المدن، إذ شعر هؤلاء الإقطاعيون بأن أهل المدن لديهم الحظ الأوفر في

(1) تاريخ الأحزاب الفلسطينية.. الحركة الوطنية الفلسطينية.

الحياة السياسية والاقتصادية والتربوية للمطالبة بحقوق الفلاحين والمزارعين والبدو أسوة بأهل المدن، لكن ما لبث أن انحل الحزب نتيجة مواقفه وعلاقته مع الحكومة البريطانية التي كانت تعمل على نشر بذور الفتنة في الصف الوطني ضمن سياسة فرّق تسُد.

- وكانت هناك أحزاب أخرى مثل الحزب العربي، والحزب الحر الفلسطيني، وحزب الأهالي، وحزب الدفاع الوطني، وجميعها كانت أحزابا ضعيفة أسسها بعض أصحاب النفوذ، لكنها لم تكن مؤطرة لا تنظيميًّا ولا عقائديًّا، ولم يكن لديها برامج واضحة، وبعض منها لم تكن لها مواقف واضحة من الانتداب وغيره.

ثانيًا: الأحزاب العقائدية التي جاء تشكيلها بناءً على فكر عقائدي جاء من خارج فلسطين وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- التنظيمات القومية: ومنها مؤتمر الشباب العربي، حركة القوميين العرب، الحزب القومي السوري، وحزب الاستقلال. هذه التنظيمات جميعها كانت ذات نزعة قومية تأثر مؤسسوها بالحركة القومية في الأقطار المجاورة التي كانت تعاني من الاستعمار وتبعاته، سواء العثماني أو الإنجليزي أو الفرنسي، مما أسهم في تكوين الفكر القومي العرب. وعلى الرغم من أن الأحزاب القومية الفلسطينية تبنت موقفًا واضحًا من القضايا الوطنية، إلا أنها لم تخرج عن الخطابات النارية، وعانت من الأزمات المالية على

الرغم من أن أغلب قياداتها كانوا من الطبقات ميسورة الحال، لكنها لم تستقطب الشارع الفلسطيني لأنها لم تطرح برنامجًا واضحًا في النضال الذي لم يتعد الخطابات.

- التنظيمات الإسلامية: مثل جمعية الشبان المسلمين التي أنشأتها الأندية في يافا، وقررت ربطها بجمعية الشبان المسلمين في القاهرة. وقد لاقت استحسانًا لدى الجماهير الفلسطينية لكنها كانت تبتعد عن العمل السياسي، وكان مجالها في العمل يعتمد على الإرشاد والوعظ، وسرعان ما تلاشى وجودها بعد قيام دولة الاحتلال وتشرد الشعب الفلسطيني بعد النكبة. أما حركة الإخوان المسلمين فكانت امتدادًا لحركة الإخوان التي أسسها حسن البنا في مصر عام 1928. وكان من مؤسسيها في فلسطين الشيخ عبد الباري بركات الذي ترأس مؤتمر الحركة في القدس عام 1946، وكانت مواقفها معلنة ضد الانتداب البريطاني لكنها كانت مرتبطة بحركة الإخوان في مصر بشكل فعّال، وكأي حزب ديني بالأساس فإن مواقفه في السياسة متذبذبة، والتاريخ الحديث شاهد على مدى زيف هذه الأحزاب في استخدامها للأديان لتغطي على برامجها الحقيقية في شتى المجالات وهو موضوع خارج نطاق بحثنا هذا.

ثالثًا: التنظيمات الشيوعية، وهي الحزب الشيوعي الفلسطيني وعصبة التحرر الوطني.

- الحزب الشيوعي الفلسطيني: كان من أوائل الأحزاب العقائدية التي تأسست في فلسطين عام 1919، فقد أسهم الانتصار العظيم لثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917 بانتقال الفكر الثوري الأشتراكي إلى كافة الحركات الثورية في العالم التي رأت فيه الكثير من الآمال للتخلص من الاستعمار واسترداد حق الشعوب في تقرير مصيرها. ولأن الفكر الاشتراكي كان منحازًا بالدرجة الرئيسية للعمال والفلاحين فإنه لاقى انتشارًا واسعًا بين المثقفين وبين صفوف الحركة العمالية في كافة انحاء العالم. أما في فلسطين فقد اندمجت بعض العناصر والخلايا الماركسية للمثقفين الفلسطينيين من العرب وبعض الأوروبين واليهود المهاجرين إلى فلسطين الذين تأثروا بالفكر الماركسي، وبهذا تشكلت النواة الأولى للحركة الشيوعية في فلسطين، فدعت منذ إرهاصاتها الأولى إلى قطع العلاقات مع الحركة الصهيونية وانضمت إلى الكومنتيرن[1]. لم يكن تشكيل الحزب الشيوعي الفلسطيني نتاجًا

(1) الكومنتيرن: اختصار لعبارة تعني الشيوعية الأممية، وكثيرًا ما يطلق عليها اسم الأممية الثالثة. وقد أسسها الزعيم الشيوعي فلاديمير إيليتش لينين عام 1919، وذلك لتنظيم الثورات عن طريق الأحزاب الشيوعية في كل دولة. وبعثت الجماعات الشيوعية من مختلف الدول مندوبين عنها لحضور المؤتمرات التي عُقدت في مدينة موسكو. وقام الاتحاد السوفييتي السابق بحل الكومنتيرن عام 1943 دليلًا على الصداقة والنوايا الطيبة تجاه حلفائه في الحرب العالمية الثانية (1939-1945).

لنمو طبقة عاملة عربية متطورة، أو نتاجا لتطور جناح يساري في حركة التحرر القومية الفلسطينية، بل كان نتاجًا خالصًا للتأثر باالأيديولوجيا الماركسية من قِبل بعض اليهود المهاجرين ضمن التجمع الاستيطاني الغريب عن العروبة، وبين بعض المثقفين الثوريين من العرب. فكان الحزب يضم العرب واليهود مما أدى إلى نشوء بعض الخلافات، على الرغم من نبذ الحزب للصهيونية ونضاله ضد المشاريع الاستيطانية ومواقفه الثورية الواضحة ضد الاستعمار البريطاني، إلا أن الشيوعيين اليهود كانوا جزءًا من الحركة الكولونيالية الاستيطانية مما زاد من حجم الخلاف بين العرب واليهود. ومع زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين بدأ الخلاف يزداد بين العرب واليهود داخل صفوف الحزب، خصوصا مع النشاط المحموم للمنظمة الصهيونية العالمية ومطالباتها بتشكيل دولة لليهود داخل فلسطين، وتزامن ذلك مع زيادة استقطاب الشيوعيين العرب للحركة العمالية العربية، فقد أسهم العمل النقابي بالتغلغل بين صفوف العمال العرب فأصبح لهم قاعدة أكبر، وازدادت المناداة بتعريب الحزب، وعيّن رضوان الحلو سكرتيرًا عامًا للحزب عام 1934 حتى عام 1943 عندما تأسست عصبة التحرر الوطني الفلسطيني، مما أسهم في انخراطهم وتغلغلهم أكثر في الوسط العربي. وبهذا فقد أصبح هنالك حزبان شيوعيان في فلسطين قبل الإعلان عن دولة الاحتلال عام 1948.

- عصبة التحرر الوطني الفلسطيني: تأسست العصبة عام 1943 في مدينة حيفا وكان من مؤسسيها الرفيق فؤاد نصار ومخلص عمر وإميل حبيبي وإميل توما وغيرهم الكثيرون من طليعة المناضلين الفلسطينيين. كانت العصبة هي طليعة الطبقة العاملة الفلسطينية، وكانت انعكاسًا مباشرًا لجملة المتغيرات التي طرأت على تطور الحركة العمالية والوطنية الفلسطينية، التي أصبحت قوة وطنية رئيسية من حركة التحرر الوطني الفلسطيني المعادية للصهيونية بشكل رئيسي وللاستعمار بكافة أشكاله. كانت العصبة هي الحزب السياسي الوحيد الذي واصل نضاله بعد النكبة، واعتبر أن القضية الفلسطينية قضية شعب يناضل من أجل استقلاله الوطني وضد المشروع الصهيوني في احتلال الأراضي الفلسطينية، وأكد مرارًا وتكرارًا على أنه جزء لا يتجزأ من الحركة الوطنية الفلسطينية، بل الحركة الثورية العربية والعالمية في نضالها ضد القوى الاستعمارية في العالم.

عصبة التحرر كانت الحزب الوحيد الذي كان منحازًا للجماهير الشعبية والطليعة العاملة من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين، كما أنه تبنى برنامجًا وطنيًّا واضحًا ضد الحركة الصهيونية وسياسات التوطين وسلب ونهب الأراضي وغيرها. ما يؤخذ على العصبة هو الموقف من قرار التقسيم، وهو موقف اعتبر خلافيًّا في زمانه، ومهما كانت الظروف فمن الصعب محاكمة الحزب والرفاق الذين اتخذوا هذا القرار في خارج

زمنهم، فيجب دراسة كافة معطيات ذلك الزمان والحكم من خلالها. هذا موضوع ذو شجون وبحاجة إلى بحث منفصل، مع أن ما حصل عليه الفلسطينيون بعد ذلك بسنوات عديدة كان أقل بكثير مما وافق عليه الشيوعيون في عام 1947. ما يهمنا بالموضوع أن هذا الحزب كان من أوائل الأحزاب التي ناضلت بشرف، ودفع بخيرة شبابه من أجل القضية الفلسطينية، واستمر نضاله بعد أن اندمج عام 1951 مع الخلايا الماركسية في شرق الأردن ليتشكل الحزب الشيوعي الأردني الذي حل محل عصبة التحرر وأكمل نضاله في الضفة الغربية والشرقية وقطاع غزة، وقدم الكثير من التضحيات ضد السياسات الرجعية العربية والمحلية، وأسهم مساهمة فعالّة، وكان له الفضل في إسقاط حلف بغداد مع الأحزاب الوطنية على الساحة الأردنية والفلسطينية في ذلك الوقت. وظل الشيوعيون الفلسطينيون يناضلون تحت راية الحزب الشيوعي الأردني حتى اختار الفلسطينيون في داخل الأرض المحتلة أن يناضلوا من خلال تنظيم خاص بهم، فاستقلوا عن الحزب الشيوعي الأردني، وبهذا ظهر إلى النور عام 1982 الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي ما لبثوا أن غيروا اسمه مجددًا بعد عدة سنوات من التأسيس ليصبح حزب الشعب الفلسطيني.

رابعًا: الأحزاب السياسية بعد نكسة عام 1967

لقد أسهمت هزيمة العرب سنة 1967 في شحذ عواطف الفلسطينيين الذين هبوا لتأسيس العديد من التيارات والحركات، كما كان الحس القومي والوطني تجاه القضية الفلسطينية وضياع كامل الأرض الفلسطينية سببًا مباشرًا في ولادة هذه الأحزاب التي تأسست على أساس قومي. فوضعت تلك الأحزاب نصب أعينها قضية تحرير فلسطين. وتبلورت على الساحة الوطنية الفلسطينية تيارات سياسية مختلفة من خلفية قومية، فكانت انطلاقة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد عام 1967 التي ما لبثت أن انبثقت عنها الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والعديد من التنظيمات الفلسطينية الأخرى. كما سبقتها حركة التحرر الوطني الفلسطيني (فتح) التي انطلقت مع بداية عام 1965، وأصبحت أكبر التيارات الفلسطينية التي قادت منظمة التحرير الفلسطينية منذ تأسيسها، وفرضت سلطتها على الشارع الفلسطيني، بفضل دعم عبد الناصر واليمين العربي لها في حقبة الحرب الباردة، للحد من خطر انتشار الفكر الشيوعي المنحاز للجماهير الشعبية، الذي أسهم مساهمة فعّالة في النضال الوطني الفلسطيني والأردني، وفضح السياسات الاستعمارية الرامية إلى كبت ونهب الشعوب، وحذر من الفكر الصهيوني الاستعلائي العنصري في مرحلة مبكرة من الصراع العربي الصهيوني، وكان سباقًا في حمل السلاح ومقاومة المحتل الصهيوني منذ البدايات، وهو من أوائل التنظيمات التي نادت بحق الأمم في تقرير مصيرها ومن ضمنها شعبنا

الفلسطيني. وقد شكل خطرًا حقيقيًّا على اليمين العربي المدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية، وكان ملاذه هو دعم بعض التيارات الأخرى من الفصائل الفلسطينية التي تأسست على أساس ظرف محلي مرتبط بالاحتلال، وليس له امتداد أممي، وبالتالي يمكن تدجينه والتعامل معه ضمن معطيات الواقع.

أصبحت جميع هذه التيارات تناضل جنبًا إلى جنب داخل الضفة الغربية وقطاع غزة ضد المحتل الصهيوني، وهيمنت حركة فتح على النضال الوطني الفلسطيني نتيجة للدعم العربي الذي لاقته من الدول العربية ومن عبد الناصر شخصيًّا في البداية كما ذكرنا سابقًا عندما تشكلت منظمة التحرير الفلسطينية. بقي النضال الوطني الفلسطيني على أشده ضد الاحتلال في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي حتى اندلاع الانتفاضة الأولى في نهاية عام 1987، فاتخذ مسار القضية الفلسطينية منحى آخر نحو التصعيد الشديد في النضال الوطني الفلسطيني ضد سلطات الاحتلال وما اعتراها من سياسات التخاذل والتشرذم العربي، وتهافت بعض الدول في العلن والسر للصلح مع دولة الاحتلال وكأن شيئا لم يكن، ضاربة بعرض الحائط نضالات الشعب الفلسطيني وتضحياته من أجل فلسطين، وصراعه على حق الوجود والعودة والشرعية بما في ذلك إقامة دولته الوطنية المشروعة والمستقلة على الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام 1967 بما فيها القدس الشريف عاصمة لدولة فلسطين.

عندما كنت أتردد على فلسطين في السبعينيات وبداية الثمانينيات، كنا نتجول بحرية داخل فلسطين من النهر إلى البحر. كانت المقاومة الفلسطينية والنضال على أشده، لكن حرية الحركة كانت مكفولة أكثر مما هي عليه بعد أوسلو. كان العدو يتربص بالفلسطينيين في كافة أماكن وجودهم لكنه كان يخشاهم، فقد سطر الفلسطينيون بدمائهم الزكية الطريق نحو الحرية ومن أجل الاستقلال، ودفعوا بخيرة أبنائهم من الشهداء الذين سقطوا دفاعًا عن الحق والواجب في سبيل فلسطين، إلى أن جاءت اتفاقيات السلام والاستسلام والهوان وقسمت الضفة الغربية إلى عدة مناطق، المنطقة أ، والمنطقة ب، والمنطقة ج. أما المناطق التي أقامت عليها السلطة الوطنية دولة فلسطين فهي في تناقص مستمر. نعم هناك دولة لكنها شكلية، فالمعابر والحدود والأمن في يد سلطات الاحتلال. والفلسطيني مقيد لا يستطيع التجول بين المدن بحرية، فهناك الكثير من الدوريات والإغلاقات التي تحد من إمكانية الحركة وحرية التنقل، فالطرق بين قرى رام الله ومدينة رام الله كيلومترات معدودة. فإذا كان الطريق الرسمي سالكًا فإنك ستصل بغضون عشر دقائق إلى عشرين دقيقة، أما في حالات الإغلاق فمن الممكن أن يكون الوقت أربعة أضعاف الوقت العادي المتوقع للوصول بسبب سلوك الطرق الالتفافية. هذه المعاناة لم تكن في سنوات السبعينيات بهذا الحد، فكانت كافة المناطق تقع تحت الحكم المحلي في حالات إغلاق كافة الطرق. أما في الوضع الحالي فأنت تحت رحمة سلطات الاحتلال، ومضطر أن تسلك

الطريق الذي يحددونه كيف يشاؤون. هناك فرق كبير بين اليوم والأمس في الحياة النضالية والسياسية والاجتماعية في حياة البشر والواقع المعيشي الذي ناقشناه سابقًا عبر صفحات هذا الكتاب.

إن الهم العام هو الحق في الحياة والعيش الكريم، فالكل يركض للحصول على لقمة عيشه. لذلك فَقَدَ الشعب الفلسطيني أهمية وجود الأحزاب في الحياة العامة نتيجة لسيطرة فتح المطلقة على كافة مجالات الحياة في الضفة الغربية، كما هي حماس في غزة، مما ضيّق الخناق على التنظيمات الأخرى الرافضة لأوسلو والتي لها وجود متواضع في الحياة السياسية داخل فلسطين. وذلك يمكن ملامسته على أرض الواقع. تبدلت الأحوال السياسية في غضون السنوات التالية للانتفاضتين الأولى والثانية ومؤتمر السلام في مدريد عام 1991، انتهاءً بأوسلو وإعلان السلطة الوطنية الفلسطينية وتوقيع اتفاقية السلام التي شرذمت القضية الفلسطينية وسمحت للدول العربية الأخرى بالتهافت على السلام مع دولة الاحتلال. مع هذا، هناك أمل معقود على الأجيال الشابة التي لن تستسلم للمخططات الصهيونية وسياسات السلام المزعومة وسياسات التهويد، وقد لمست ذلك في الزخم النضالي لجيل الشباب الناشئ، الذين يتلقون بصدورهم العارية رصاص سلطات الاحتلال من أجل العزة والكرامة والاستقلال.

ما أستطيع أن أقوله أن هذه التنظيمات جميعها استهلكت، وفقدت زخمها التاريخي، فأغلبية هذه الأحزاب جاءت مع وجود الاستعمارين

البريطاني والفرنسي وقبلهما العثماني في الدول العربية. كما أن هذه الفترة شهدت المد الثوري والنزعة القومية والمناداة بالاستقلال في أغلبية الدول العربية. وبالتالي فإن أغلبية هذه الأحزاب ذات النزعة القومية جاءت في فترة تاريخية محددة لتلبي المطالب الشعبية من اجل الاستقلال. كما لعب النهج الناصري بنزعته القومية دورًا أساسيًّا في توجيه دفة النضال من أجل التخلص من الاستعمار. ومن ثم جاءت الحرب الباردة وبرز دور الأحزاب الأممية المناهضة للفكر الرأسمالي ولليمين العربي، وتبنت بعض الأحزاب القومية جزءًا من الأيديولوجيا الاشتراكية المشوهة في خطابها السياسي، واستمرت تلك الحقبة إلى بداية التسعينيات في القرن العشرين عندما أبصر العالم انهيار الاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الاشتراكية، عندها شهدت بعض الأحزاب تراجعًا سياسيًّا وتنصل البعض الآخر من أدبياته، بل غير من نهجه الثوري ومناداته بالاشتراكية، وبقيت الأحزاب القومية الحاكمة في سورية والعراق، والجميع يعرف مدى تطور الأحداث في البلدين ولا داعي لذكره. ما يهمنا هنا ماذا حصل للأحزاب الفلسطينية ذات النزعة القومية وأكثرها في تسميتها تتعلق بتحرير فلسطين: من فتح، إلى الجبهة الشعبية، والجبهة الديمقراطية، أو حتى حزب الشعب الفلسطيني الذي قام بتغيير اسمه من الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى حزب الشعب الفلسطيني دون أي مبررات منطقية، فتحول من حزب أممي إلى حزب ذي نزعة قومية. وهناك غيرها من التنظيمات السياسية الكثيرة على الساحة الفلسطينية التي

مر عليها الكثير من الأحداث منذ تسعينيات القرن الماضي، من اتفاقيات السلام المهين والمباحثات السرية التي قادها تنظيم فتح مع الجانب الصهيوني والتي تكللت بالتوقيع على اتفاقية أوسلو رغم عدم قبولها من قِبل فصائل منظمة التحرير، مما أدى إلى تقزيم للقضية الفلسطينية وتحنيط منظمة التحرير وإقامة السلطة الوطنية الفلسطينية التي تم تحجيمها من قِبل دولة الاحتلال، فباتت شكلية وانتهى معها تنظيم فتح الذي أصبح شبه محنط، وتحول من تنظيم ينادي بتحرير فلسطين إلى حزب السلطة الراعي لمصالحها فقط. أما التنظيمات الأخرى فضعفت بدورها وأصبحت قياداتها مترهلة، وضعف دورها السياسي على الساحة الفلسطينية نتيجة لسيطرة فتح التي باتت تتصرف وكأن فلسطين ملك لها، ولا وجود لغيرها على الساحة الفلسطينية. وتلك من الحقائق الدامغة التي يجب أن تتحمل فتح مسؤليتها أمام التاريخ في إخفاقها لما تعرضت له القضية الفلسطينية من تنازلات لدولة الاحتلال في الكثير من الملفات الشائكة. ونتيجة للأحداث التي عصفت في العالم وللظروف التي مرت على الساحة الفلسطينية، برزت بعض التنظيمات الأخرى على الساحة الفلسطينية، من التي كان بعضها موجودًا مثل حركة حماس والجهاد الإسلامي، إلا أن دورها أصبح أكبر على الساحة الفلسطينية خاصة بعد موت أبو عمار وفوزها في انتخابات المجلس التشريعي عام 2006، وتشكيل الحكومة التي رفضت فتح مشاركتها بها كحكومة وحدة وطنية، وبالتالي تم إفشالها لكي تعود السلطة إلى تنظيم فتح الراعي الرسمي

لمفاوضات السلام الذي وصّف نفسه وصيًا على الشعب الفلسطيني. بهذا، أفسح تنظيم فتح المجال لتكريس الفرقة على الساحة الفلسطينية، فأصبحت لدينا حكومتان، واحدة في غزة تحت إدارة حماس بالكامل بدون أدنى تدخل من السلطة التي فقدت شرعيتها على القطاع، والأخرى في رام الله بقيادة فتح. وبهذا أصبح لدينا تنظيمان رئيسيان على الساحة الفلسطينية، واحد تمثله فتح والسلطة الوطنية ومنطقة نفوذه الضفة الغربية، والثاني تمثله حماس وحركة الجهاد الإسلامي ومناطق نفوذه قطاع غزة. هذه الفرقة على الساحة الفلسطينية لا تخدم إلا سلطات الاحتلال التي ترى أن الفرقة بين التنظيمات وعدم الاتفاق يصب في مصالحها بشكل مباشر. وبذلك فهي قادرة على اللعب على التناقضات وتغذية بذور الفتنة وهو ما تجيده سلطات الاحتلال.

إن الوضع السياسي على الساحة الفلسطينية مقلق في ظل هذه الأوضاع الراهنة، فنحن في أمس الحاجة الآن، أكثر من أي وقت مضى، للحفاظ على اللحمة الوطنية والوقوف جنبا إلى جنب في التصدي إلى كافة المشاريع التصفوية للقضية الفلسطينية، وأبرزها ملف القدس كعاصمة أبدية لفلسطين، والوقوف بحزم ضد إجراءات التهويد والتوطين وبناء المستوطنات والانقضاض على مكتسبات الشعب الفلسطيني النضالية، وحقه في العيش الكريم وحاجته إلى الاستقلال وبناء دولته الوطنية الفلسطينية على كافة التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر.

أما في داخل دولة الاحتلال، فاستمرت بعض الأحزاب السياسية العقائدية التي كانت موجودة قبل عام 1948 في النضال ضد دولة الاحتلال، مثل «ركاح» (الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي كان أعضاؤه من اليساريين اليهود والعرب)، فقد خاض الانتخابات البرلمانية، وكان له مندوبوه في الكنيست الإسرائيلي من العرب وأبرزهم: إميل حبيبي، وتوفيق زيّاد، وتوفيق طوبي، وغيرهم من المناضلين الذين وقفوا مدافعين عن فلسطين والفلسطينيين بشراسة في الكنيست الإسرائيلي. بعد عام 1948 تشكلت بعض الأحزاب العربية، وذلك لرص الصفوف وتنظيم العمل السياسي ضد المخططات الرامية لتصفية العرب وطردهم خارج الديار، ومع تشكل الدولة العبرية كان لا بد من النضال والمشاركة في الحياة السياسية للوصول إلى البرلمان (الكنيست) لتوصيل الصوت العربي لأعلى المستويات. وعادةً تجري الانتخابات البرلمانية بحسب قانون القائمة النسبية. ويشارك حزب أو أكثر في تشكيل قائمة لهذه الأحزاب تتنافس مع مجموعة من القوائم الأخرى.

أما الأحزاب السياسية العربية التي تشكلت داخل دولة الاحتلال بعد عام 1948، فهي الأحزاب التالية والأكثر فعالية:

- الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة، ومختصرها «حداش» باللغة العبرية، تأسست قبل انتخابات عام 1977 من ركاح (الحزب الشيوعي الإسرائيلي)، وتضم في عضويتها العرب واليساريين من اليهود المناهضين للفكر الصهيوني، مع عناصر

وطنية مثقفة يهودية وعربية وذلك لخوض الانتخابات. ومن برامجها يمكن تلخيص النقاط المهمة التالية:

- الاتفاق بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني والمطالبة بالانسحاب من جميع المناطق التي احتلتها إسرائيل والعودة إلى خطوط الرابع من حزيران عام 1967، وهي من الضفة الغربية والقطاع، وتحقيق السلام الشامل والعادل للقضية الفلسطينية.
- إلغاء سياسة التمييز والاضطهاد ضد المواطنين العرب.
- حل عادل للاجئين الفلسطينيين طبقًا لقرارات هيئة الأمم المتحدة.

بالإضافة إلى بعض المطالب في ما يخص حقوق المرأة والمساواة والدفاع عن الحريات الديمقراطية وتوسيعها وإلغاء سياسة التمييز الطائفي ضد الطوائف الشرقية في جميع المجالات.

- التجمع الوطني الديمقراطي، تأسس هذا التجمع عام 1995 إثر اتحاد عدة حركات سياسية عربية وهم: أبناء البلد، القائمة التقدمية للسلام، وحركات سياسية أخرى. يدعم التجمع حل القضية الفلسطينية طبقًا لقرارات المجتمع الدولي والأمم المتحدة. كما يناهض هذا التجمع ويشجب كافة القوانين والممارسات التي تكرس صهيونية إسرائيل، كما أنها تناضل من أجل إلغاء كافة القوانين التي تسنها الدولة ضد السكان العرب من الفلسطينيين.

كما أنها تدين سياسات إسرائيل الرامية إلى مصادرة أراضي الفلسطينيين، وتدعم حق الفلسطينيين في العودة إلى قراهم التي هُجّروا منها والحصول على أراضٍ من أرض الدولة وبناء مدن جديدة لهم. (للعلم، حركة أبناء البلد هي خارج التجمع الآن وهي رافضة للمشاركة في انتخابات الكنيست الإسرائيلي).

- الحركة العربية للتغيير، فقد تأسست هذه الحركة عام 1996، بمبادرة من النائب السابق للرئيس عرفات وهو الدكتور أحمد الطيبي، وكانت مدعومة من البداية من الفئة المتبقية من الحركة التقدمية. هذه الحركة تعبّر عن نفسها بأنها حركة وطنية متحضرة وشابة تعمل من أجل تحسين وضع الفلسطينيين في داخل إسرائيل ودمجهم للمشاركة في الحياة السياسية أكثر. وبمعنى آخر هي حركة تأسست على غرار حركة فتح، وقد تكون تابعة لها بشكل غير مباشر. لأن من أهم أهدافها الاستمرار في دعم السلام الفلسطيني – الإسرائيلي، بما يخدم القضية الفلسطينية في حل الدولتين وتطبيق مبادئ الشرعية الدولية.. باختصار برنامجها يتقارب كليًّا مع برنامج فتح.
- القائمة العربية الموحدة، وهي الحزب السياسي للحركة الإسلامية في الداخل الفلسطيني بشقيه الجنوبي والشمالي، فقد أسسها عام 1971 الشيخ عبد الله نمر درويش في منطقة المثلث. وبالرغم من عدم تبعيتها لحركة الإخوان المسلمين كما تزعم، إلا أنها تتشابه

معهم إلى حد بعيد. في العام 1996 انقسمت الحركة على خلفية المشاركة بانتخابات الكنيست، وانقسمت إلى قسمين:

- الجناح الشمالي، بقيادة الشيخ رائد صلاح الذي يدعم مقاطعة الانتخابات الإسرائيلية. ونتيجة لذلك فقد تم حظرها من قبل دولة العدو الصهيوني.
- الجناح الجنوبي، بقيادة إبراهيم صرصور الذي يدعم المشاركة في الانتخابات للتأثير من الداخل، وهي ما تمثل القائمة العربية الموحدة.

إن أداء هذه الأحزاب مرهون بطبيعة الصراع العربي – الصهيوني والعنصرية داخل هذا المجتمع غير المتجانس، وكلما زاد عدد السكان من العرب تزداد القوة الانتخابية بعدد الناخبين والبلوك العربي، مما سيؤدي إلى إيصال عدد أكبر إلى البرلمان. لهذا فالمسألة الديمغرافية تهدد كيان المجتمع الإسرائيلي الذي يخشى من هذه الزيادة الكفيلة بالتأثير على السياسات الإسرائيلية، وهي مؤشر على النهاية الحتمية لهذا الكيان المهدد بالزوال.

على الرغم من أن العرب هم ذات العرب حتى داخل دولة الاحتلال وهناك عزوف عام عن الانتساب للأحزاب، إلا أننا هنا بصدد زيادة عدد السكان التي تؤدي إلى مضاعفة القوة الانتخابية للعرب مقابل نمو طفيف في نسبة اليهود، التي ربما ستبدأ بالتناقص التدريجي نتيجة الهجرة العكسية نحو الغرب.

النضال الوطني الفلسطيني وأساس المقاومة

إن قضية نضال الشعب العربي الفلسطيني ضد المحتل قضية عادلة، فخيار المقاومة كما درجت العادة واعتاد الكثير من السياسيين على المناداة به ليس خيارًا. فمقاومة المحتل لا تعتبر خيارًا بل أساسًا نضاليًّا شاملًا وواجبًا وطنيًّا مقدسًا. فكلمة خيار تعني أنه حلٌّ قد يكون مطروحًا ضمن عدة خيارات مختلفة، وقد يكون هذا الخيار صائبًا وقد لا يكون. ولهذا فإن واقع النضال الوطني الفلسطيني ومقاومة المحتل ليس خيارًا بل واقعًا سياسيًّا صرفًا تمليه الظروف الطبيعية لمعاناة الشعب الفلسطيني. لقد شاهدت بأم عيني قوة الشباب الفلسطيني في المواجهات مع جيش الاحتلال، وشاهدت كيف يستقبلون الرصاص الحي بقوة وصلابة لا مثيل لها، كلهم مشاريع شهادة لا يهابون الموت أبدًا، لا يخافون من الرشاش والمدفع، بل هم من يُرهبون جيش الاحتلال على الرغم من الواقع السياسي الأليم للثورة الوطنية الفلسطينية وضعف التنظيمات السياسية على أرض الواقع، وضعف دور منظمة التحرير الفلسطينية بعد اتفاقية أوسلو وهيمنة فتح على الشارع الفلسطيني التي اختارت الحل السلمي بتلك الشروط المجحفة بحق الشعب الفلسطيني، وأبقت على كافة الملفات معلقة من دون حل، كقضية القدس واللاجئين وحق العودة الذي أدى إلى ضعف باقي التنظيمات، والنضال الوطني والسياسي على الساحة الفلسطينية. فكما تغيرت الأحوال في العالم العربي وأصبح هناك عزوف شديد عن الإقبال على العمل الحزبي والأنشطة

الحزبية والنضال السياسي، كذلك هي الحال في فلسطين إذا استثنينا القاعدة التي تجيش الجماهير الفلسطينية لفتح على اعتبار عاطفي من دون أن يكونوا أعضاء فاعلين في الحركة. حركة فتح هي حزب السلطة الحاكمة إن صح التعبير، فالغالبية الفلسطينية التي تعتبر نفسها فتح، قليل منها مسيس بالمعنى الحقيقي للكلمة، أما الغالبية العظمى منهم فلم يسبق لهم أن مارسوا الحياة الحزبية قبل مجيء السلطة.

في الواقع، إن مفهوم المقاومة يتسع ليأخذ أشكالا متعددة من النضال من بينها المقاومة المسلحة، والمقاومة الشعبية السلمية، والمقاومة السياسية والدبلوماسية، والمقاومة القانونية والاقتصادية والثقافية. كافة أشكال المقاومة المختلفة تؤثر سلبًا على الاحتلال وسياساته ومخططاته الإجرامية. إن كافة أشكال المقاومة قد تندرج تحت المفهوم الأوسع للمقاومة الذي يتوافق مع الميثاق العام للأمم المتحدة الذي يجيز للشعوب المحتلة أراضيها مقاومة الاحتلال باستخدام الكفاح المسلح، الذي يجر تعاطفا شعبيا أوسع مع من يتبنى هذا الشكل من المقاومة. ولهذا، فالمقاومة المسلحة للاحتلال لا تغدو خيارًا بل أساسًا في النضال وواجبًا مقدسًا لا يمكن التنازل عنه وعن حق الشعب فيه.

كثيرة هي الحالات النضالية المختلفة التي قاومت فيها الشعوب جلاديها من المحتلين بشتى السبل، وقد أثبتت التجارب أن المفاوضة وحدها غير قادرة على تحقيق الإنجازات من دون المقاومة بكافة أشكالها، ومن أهمها المقاومة المسلحة للوصول إلى طاولة المفاوضات والجلوس للتفاوض

بمنطق القوي. وهذا المنطق يشير بالضرورة إلى تحقيق المصالحة الوطنية الفلسطينية على قاعدة من الوئام والاتفاق في ما بين الأطراف جميعها، وتوحيد مصالحها المشتركة ضد العدو الصهيوني. وهذا يدعو أيضًا إلى عدم تمسك أي طرف بموقفه وكأنه الوحيد على الساحة الفلسطينية فيقوم بدور الوصي على الشعب الفلسطيني. فالمطلوب هو إقامة حوار وطني بين كافة الفصائل الفلسطينية والاتفاق على برنامج سياسي محدد. وقد أظهرت طبيعة التجارب والإنجازات التي تحققت في نضال الشعب الفلسطيني عبر المقاومة المسلحة أو المقاومة السياسية حاجة التنظيمات إلى التخلي عن انغلاقها على رؤيتها فقط واعتبارها الأنسب والأهم دون غيرها، على غرار ما تقوم به فتح لوحدها في الضفة الغربية وحركة حماس في غزة.

وللتذكير أيضًا، عندما تم إبرام اتفاقية غزة – أريحا أولًا، استأثرت حركة فتح والرئيس عرفات بالسلطة التامة على منظمة التحرير، عن طريق قنوات المباحثات السرية التي كانت دائرة بشكل موازٍ مع المباحثات الرسمية للوفد الفلسطيني الرسمي الذي تشكل بعد مؤتمر مدريد للسلام عام 1991، والذي ضم في جنباته ممثلين عن التيارات والفصائل الفلسطينية المختلفة المشاركة في منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. لم يكن إبرام هذا الاتفاق للسلام خيارًا فلسطينيًّا يمثل كافة فئات وفصائل منظمة التحرير وما جاء بموافقة الشعب الفلسطيني.

فماذا فعلت حركة فتح ممثلة بالرئيس عرفات؟ لقد فاجأت العالم أجمع بالإعلان عن التوصل إلى اتفاق مع الجانب الإسرائيلي عبر قنوات سرية من

المباحثات والمفاوضات تحت الرعاية الأمريكية، وبهذا انزلقت نحو مصيدة الوقوع في المحذور، فقد جرى التنبيه دومًا من قِبل الأحزاب الوطنية اليسارية داخل منظمة التحرير على ضرورة التمسك بالموقف العربي الموحد، وعدم الانسياق وراء المصالح والوعود الأمريكية والإسرائيلية لإجراء حلول منفردة مع إسرائيل. بل يجب الالتزام بالموقف العربي الموحد الرافض للانزلاق نحو هذه المصيدة. لكن كانت النتيجة أن نصبت فتح نفسها وصيًّا على الشعب الفلسطيني، ولم تستفد من دروس التاريخ. وكرر عرفات ما قام به الرئيس السادات عندما وقَّع اتفاقية كامب ديفيد بشكل مغاير تمامًا لما أعده له الوفد المصري الذي أمضى ما يزيد على عشرة شهور من المباحثات، فقد انزلق نحو المصيدة التي أعدها له الأمريكان في اجتماع منفرد مع الرئيس الأمريكي آنذاك، جيمي كارتر، ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيجن. وتم في ذاك الاجتماع المغلق الاتفاق على أقل بكثير مما كان مقررًا ومتفقًا عليه من قبل الوفد الرسمي والمباحثات التي أجراها مع الوفد الإسرائيلي في قنوات التفاوض الرسمية، لقناعة السادات التامة بأن أوراق الحل في يد الولايات المتحدة. وهذا ما كان يكرره باستمرار لدرجة أن وزير خارجيته آنذاك، محمد إبراهيم كامل، رفض حضور حفل التوقيع واستقال بنفس اليوم من منصبه كوزير للخارجية وعاد إلى مصر، وانسحب من المشهد السياسي للأبد. لم تستفد حركة فتح من درس التاريخ ممثلة برئيسها ياسر عرفات الذي استُدرج لذات الشيء في التوقيع على معاهدة أوسلو التي توصل إليها عبر القنوات السرية التي كانت حركة فتح تتفاوض فيها مع العدو الصهيوني. مع العلم أن

المصريين كانوا من درَّبوا الوفدين الأردني والفلسطيني على كيفية التعامل والتفاوض مع الإسرائيليين للخبرة السابقة لديهم في كيفية التفاوض مع الجانب الإسرائيلي. في حين كان الوفد الفلسطيني الرسمي بقيادة المناضل المرحوم الدكتور حيدر عبد الشافي يفاوض الجانب الإسرائيلي من دون أدنى معرفة بما كان يتم في الخفاء. ونتيجة لهذا الاختراق الذي حصل من دون معرفة الوفد الفلسطيني الرسمي، قدَّم الدكتور حيدر عبد الشافي استقالته من رئاسة الوفد احتجاجًا على عدم قبوله هذه النتائج التي أُبرمت بعيدًا عنهم وهم الوفد الفلسطيني الرسمي. كان لتوقيع هذه الاتفاقية أثر كبير في شق الصف الفلسطيني، خاصة أن العديد من فصائل منظمة التحرير وقفت في موقف موحد ضد اتفاقية أوسلو التي تمت في الاروقة السرية بعيدة عنهم وعن الوفد الرسمي المفاوض. فلم تأبه حركة فتح بالمعارضين، فقد ضربت بعرض الحائط كافة الخيارات الأخرى وراهنت على موقفها الداعم لابرام هذه الاتفاقية مع الجانب الإسرائيلي، بل قامت بتشكيل وفد لاستكمال مفاوضات السلام. وتم إبرام الاتفاق الأولي عبر توقيع اتفاقية غزة – أريحا أولًا التي انبثقت عنها السلطة الوطنية الفلسطينية التي عادت بموجبها إلى فلسطين، واتخذت من رام الله موقعًا لها وعاصمة مؤقتة لدولة فلسطين. كانت اتفاقية غزة – أريحا أولًا هي اللبنة الأساسية في عملية السلام الفلسطيني – الإسرائيلي والمرحلة الأولى. ولاستكمال هذا السلام، قامت السلطة الجديدة في رام الله بتشكيل وفد جديد للمفاوضات –كما ذكرنا– من أعضاء حركة فتح وبعض الشخصيات الوطنية الأخرى المحسوبة على تنظيم فتح.

أما المرة الثانية التي لم يُنظَر فيها لدروس التاريخ النضالية للشعوب، فكانت عندما وقعت السلطة والوفد المفاوض مرة أخرى في المحذور، وفوتت العديد من الفرص خلال فترة المفاوضات، فقد قامت السلطة بتهدئة العمل على الساحة الفلسطينية، بل شجبت العمليات العسكرية التي كانت تقوم بها الفصائل المختلفة ضد المستوطنيين والجيش الإسرائيلي، على اعتبار أن السلام هو الخيار الأنسب، بينما المقاومة هي خيار ضار بالعملية السلمية. وكان من الأجدى الاستفادة من هذه العمليات للضغط على الوفد الإسرائيلي خلال التفاوض، واستخدام هذه العمليات ورقة رابحة في يديه لتحقيق المطالب العادلة للشعب الفلسطيني وحقه في العيش الكريم، ونيل الاستقلال الحقيقي على الثرى الفلسطيني، وتشكيل دولته المستقلة، وإفهام الجانب الإسرائيلي أنه غير قادر على ضبط العمليات العسكرية من دون تحقيق كافة المطالب العادلة لشعبنا الفلسطيني. وهذا يشير مرة أخرى إلى أن المقاومة ليست خيارًا بل أساسًا نضاليًّا، والسلام المبرم الذي يصب في مصلحة العدو الصهيوني أقل ما يمكن قوله عنه هو استسلام بدلا من سلام. لقد مارست السلطة الوطنية الفلسطينية سلطاتها لقمع الشعب الفلسطيني وكانت تلاحق المناضلين بعد أوسلو وتودعهم السجون الفلسطينية مقدمة خدمة مجانية لدولة العدو.

لقد جرت العادة من خلال تجارب نضال الشعوب المختلفة ضد الاستعمار على استخدام المقاومة المسلحة إلى حين إجبار العدو على الجلوس على طاولة المفاوضات. وهذا ما استطاع الشعب الفلسطيني

الوصول إليه في فترة زمنية محددة، عندما كانت كتائب القسام والأقصى ترهب الإسرائيلين في شتى أماكن وجودهم داخل فلسطين. لم تستخدم السلطة الوطنية هذه العمليات كورقة ضغط في يديها لتقوية موقفها التفاوضي في الضغط على سلطات الاحتلال للإذعان لمطالب الشعب الفلسطيني. بل على العكس تمامًا، فقد لعبت دورًا سلبيًّا في بعض الأحيان بالضغط على فصائل المقاومة لإسكاتها وكتم عملياتها إرضاءً لمطالب دولة العدو. كان من الأفضل أن تعي تمامًا أن دروس التاريخ غاية في الأهمية؛ لأن التاريخ عندما يعيد نفسه -كما يقول ماركس- فالمرة الأولى تكون مأساة، أما الثانية فمهزلة. وللتذكير فقط، فعندما اضطر الرئيس جمال عبد الناصر للموافقة على مبادرة روجرز بعد نكسة عام 1967، وقبول الهدنة كخُطة تكتيكية مرحلية من أجل استكمال بناء حاجز الصواريخ بعد الغارات الإسرائيلية التي دمرت الطيران المصري والمطارات في الحرب، اعتبرت فصائل منظمة التحرير كحركة فتح وبعض التنظيمات الأخرى مثل الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وغيرها، أن مصر استسلمت للهزيمة، وبدأت العلاقات تفتر بين النظام الناصري والحركة الوطنية الفلسطينية. حينها نادى الرئيس عبد الناصر ياسر عرفات وقال له بالحرف: «أنا أريدكم أن تقوموا بالمناوشات اليومية في العمق الإسرائيلي لأن ذلك سيساعد في بناءِ موقفنا الاضطراري لقبول الهدنة وذلك استعدادًا للحرب القادمة بلا محالة». لكنهم لم يستمعوا له وشنوا حربًا شعواء على عبد الناصر الذي قام هو نفسه قبل مماته بإخماد لهيب الحرب الأهلية بين الفدائيين الفلسطينيين والجيش الأردني والحكومة الأردنية، وهو ما عُرِف بأيلول

الأسود، لقناعته التامة بأن أي حرب عربية – عربية تصب في صالح دولة الاحتلال. فالسلطة الوطنية الفلسطينية أخفقت باستخدام العمليات العسكرية لتقوية موقفها التفاوضي مع العدو الصهيوني. ومرة أخرى لم تُلق السلطة بالًا للتاريخ ودروسه.

إن الاقتتال العربي – العربي والحروب الداخلية من الدروس الهامة التي يجب أن تبتعد عنها الفصائل الثورية، وبدلًا من تراشق الاتهامات والاقتتال والتناحر الداخلي، يجب توجيه هذه السهام نحو العدو المشترك، وهذا هو الدرس الثالث المستقى من التاريخ، والذي لم تستخدمه المنظمة رغم أنها عايشت الصراعات الداخلية في حربين أهليتين: في الأردن وفي لبنان. فوقعت السلطة مرة أخرى في المحذور للمرة الثالثة من خلال الصراع الفلسطيني – الفلسطيني بين حركتي فتح وحماس. مما أدى إلى صدام انبثق عنه شق في الصف الوطني، وأصبحت هناك سلطتان: واحدة في رام الله تمثلها السلطة الوطنية وعلى رأسها حركة فتح، والأخرى في غزة بقيادة حماس. هذا الانقسام في الصف الفلسطيني لا يخدم سوى دولة العدو، بل هو ما تسعى إليه لإضعاف الموقف الفلسطيني المأزوم.

إن التاريخ النضالي للشعوب لم يعرف شكلًا واحدًا للمقاومة يمكن استخدامه واعتماده باستمرار على مر العقود، فقد نجح غاندي في مقارعة الاستعمار الإنجليزي عبر المقاومة الشعبية السلمية. بينما نال الجزائريون استقلالهم بالمقاومة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي الذي دام 130 سنة. فالشعب الفلسطيني ليس استثناء في التاريخ رغم استثنائية هذا الاحتلال

العنصري الصهيوني الإحلالي، فإن تجربة الفلسطينيين يجب ألا تَتخذ شكلًا محددًا للمقاومة، بقدر ما تستدعي العمل على ضرورة الحوار والاتفاق على توسيع مفهوم المقاومة، واختيار الأولوية النضالية لهذه المقاومة وشكلها انطلاقًا من قدرتها على تحقيق الأهداف اعتمادًا على الظروف النضالية الذاتية والمرحلية. فالقراءة الموضوعية لطبيعة الصراع تحدد شكل المقاومة الشعبية وما سيتبعها من أشكال المقاومة الأخرى المساندة، من المقاومة السياسية والقانونية، ولا يمكن استثناء الكفاح المسلح كأحد أهم المقومات الأساسية للنضال، وهو ما تشرعه المواثيق الدولية، ليعود ويتصدر أشكال المقاومة في مراحل معينة وظروف معينة، ليس خيارًا بل بوصفه أساسًا نضاليًّا.

لا أحد يجب أن يغلق الطريق على أي شكل من أشكال المقاومة، أو أي من الخيارات التي يمكن توظيفها في الصراع مع دولة الاحتلال الصهيوني، خاصة في ظل اختلاف الظروف الجيوسياسية بين المناطق الفلسطينية، وفي ظل التعددية السياسية التي تشهدها الساحة السياسية الفلسطينية، والتي تتصدر المشهد العام. فإذا كان الكفاح المسلح أحد أشكال المقاومة مهما بلغت قوته، فإنه سينتهي إلى المفاوضة، فإن المفاوضة لا يمكن أن تحقق انجازًا إلا حين تكون تتويجًا لنضال متنامٍ متعدد الأشكال والأساليب.

يجب على الفلسطينيين والسلطة الوطنية الفلسطينية بالتحديد أن تجد عبر حوار شامل بين مختلف الفصائل الفلسطينية السبيل لتحقيق التكامل بين أشكال المقاومة والتنسيق في ما بينها، بدلًا من وضع هذه الاشكال بدائل لبعضها، ومن مواقع التوظيف الفصائلي وليس التوظيف الوطني.

إن الإنجازات التي حققها الفلسطينيون عبر سنوات النضال الطويلة قد وفرت أرضية جيدة للتوافق السياسي، لكنه لا يعطي الأفضلية لأي طرف بأن يكون وصيا على الشعب الفلسطيني كما هي حركة فتح الآن. هذا التوافق السياسي يجب أن يؤسس لتطوير عملية المصالحة بين الفصائل المختلفة التي سيكون من شأنها أن تنفتح على إمكانيات توسيع الاشتباك مع قوات الاحتلال، أكثر من أن تنفتح على إعادة إحياء العملية السلمية التي تصب في مصلحة دولة العدو الصهيوني في المرحلة الحالية. لقد سئل فيدل كاسترو ذات يوم: ما رأيك بالمفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟

قال: أنا لا أفهم هذه المفاوضات، لو كنت أنا لفاوضت اليهود كيف يريدون الرحيل برًّا أم بحرًا أم جوًّا.

هذه هي الإرادة الحقيقية التي تتجلى في حق الأمم في تقرير مصيرها بنفسها، بألا ترضخ لارادة المستعمر، بل هي من ستفرض شروطها في النهاية.

من يرَ الشباب الفلسطيني الثائر والمتحمس العاشق للحرية والحياة، يعلم علم اليقين أن الوطن يسكن داخل كلّ واحد منهم بالفطرة، والنضال الوطني تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل، رافعة راية الحرية خفاقة عالية في سماء هذا الوطن. هذا الجيل والأجيال التي تليه لن تستسلم أبدًا رغم قساوة الاحتلال والاعتقال وظلام السجون والاستشهاد، فلن تخيفهم تلك العذابات، وكلما سقط شهيد يكون نبراسًا حقيقيًّا يضيء الطريق نحو الحرية بدمه الزكي والطاهر. لقد كانت فلسطين وشباب فلسطين منذ الإرهاصات الأولى للاحتلال متيقظين ومناضلين، بذل الكثيرون حياتهم فداءً للوطن وحريته، فقد

تقلبت عليهم الاستعمارات المختلفة، لكن ذلك لم يثن من عزيمتهم في الصمود والنضال ضد كافة المحتلين فردّوهم خائبين. توارثوا النضال جيلا بعد جيل ليبقى اسم فلسطين عاليًا ورايتها خفاقة دومًا في سمائها الحرة الأبية. لقد قهر هذا الشعب الاستعمار التركي العثماني وقاومه بشراسة، كما قاوم المحتل الإنجليزي بنفس الضراوة والقوة، وها هو جيل اليوم يكمل المشوار الذي بدأته الأجيال السابقة. لهذا نحن اليوم بحاجة إلى نبذ الصراعات والخلافات الداخلية، ورص الصفوف والعمل على تطوير المصالحة الوطنية، وتوحيد كافة الجهود النضالية وتوجيهها ضد العدو الصهيوني. فسلاح المقاومة هو السلاح الأكثر فاعلية إلى جانب المقاومة الشعبية في النيل من الاحتلال، وهو ما يرهب دولة الاحتلال ويعجل زوالها كدولة استعمارية عنصرية. وهذا الموضوع ذو أهمية خاصة، يمكن دراسته بإسهاب أكثر لتبيان بنية هذه الدولة، مشاكلها وأزمتها البنيوية التي ستؤدي إلى زوالها في المستقبل القريب.

يجب على السلطة الوطنية الفلسطينية أن تستجيب لمطالب الشارع الفلسطيني، وألا ترضخ للاستفزازات الإسرائيلية التي لا تجنح للسلم بتاتًا، فإرادة الشعب سوف تنتصر في النهاية على الظلم والقهر والاستبداد الذي تمارسه سلطات الاحتلال. فكما قال لينين: «إن النصر سيكون فقط حليف أولئك الذين يؤمنون بالشعب»، فقد قهر الشعب الفيتنامي الولايات المتحدة الأمريكية بجيشها وعدتها وعتادها ولم يستسلم ونال شرف حريته بعد عناء طويل. انتصرت الإرادة الشعبية والمقاومة الباسلة في طرد الأمريكان من فيتنام،

ولم تكن المقاومة خيارًا بل واقعًا نضاليًّا انتصر في النهاية. وها هي فيتنام الآن من الدول الصناعية الهامة في آسيا. كما أن هناك الكثير من الأمثلة على الصمود الأسطوري للكثير من شعوب العالم ضد الظلم والقهر والاستبداد الذي تمارسه الدول الرأسمالية عن طريق الاستعمارات غير المباشرة والحصارات الاقتصادية. فها هي كوبا مثال صارخ على بعد أميال معدودة من الولايات المتحدة، وتعاني من الحصار الاقتصادي الذي ضربته الولايات المتحدة حولها منذ ما يزيد على الخمسين عامًا فلم ترضخ. فإرادة الشعوب أقوى من جلاديها وهي تنتصر دومًا في النهاية. هذا الصراع الذي يعيشه شعبنا الفلسطيني له نهاية حتمية حقيقية بقهر هذا الاحتلال، فمشروع الكيان الاستيطاني الاستعماري في فلسطين لا يستند إلى أي أسس تاريخية أو سياسية أو دينية، وإنما يستند إلى مطامع إمبريالية بحتة، فهو حصيلة الفكر الاستعماري الرأسمالي الغربي. ونحن نعلم علم اليقين أن الرأسمالية لا يمكن أن تشكل مستقبل الشعوب، ففي أفولها ستسقط كافة أشكال الدعم لدولة الاحتلال التي هي جزء لا يتجزأ من المنظومة الرأسمالية الغربية وستسقط بدورها. لذلك فإن زوال هذه الدولة في المستقبل القريب هو حتمية تاريخية.

خاتمة

كانت بالفعل هذه الزيارة لفلسطين التاريخية مختلفة كليًّا عن الزيارات السابقة التي زرتها فيها في طفولتي، فقد حاولت النظر إلى فلسطين من منظار آخر، واجتهدت في فهم التغيرات التي طرأت على المجتمع الفلسطيني في ظل الاحتلال البغيض، بين ماضٍ قاسٍ لم ينقض بويلاته وآلامه بعد، وحاضر شائك وواعد بمستقبل أفضل. وللقارئ الكريم الحكم على ما اجتهدت به في تحليلي للواقع الفلسطيني الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بملفاته الشائكة. قد يتفق معي البعض وقد لا يتفق البعض الآخر وتلك طبائع الأمور. لكني وبكل إخلاص حاولت أن أنقل صورًا للواقع الذي رأيته بموضوعية بدون تجميل أو إطراءٍ زائف، لتجسد الصورة الواقع الملموس بكل شفافية. كما حاولت قراءة الواقع بموضوعية والاجتهاد في استقراء المستقبل المنظور في ما يخص وجود دولة الاحتلال غير الشرعية، ومعرفة مدى استمراريتها وديمومتها بناءً على واقعها والصراعات الداخلية والتناقضات المتعددة والبراكين الخامدة التي ترقد فوقها، وسبل إثارتها لتتفجر من جديد ويتفجر معها البنيان الهش لهذه الدولة الزائلة.

زيارة جديدة لفلسطين تجدد معها الأمل بمستقبل أفضل قد لا يطول انتظاره ما دامت هذه الأرض تنبت البذور الطيبة في أبنائها وبناتها جيلا بعد

جيل ليتجدد الأمل ببزوغ ذاك الفجر الجديد، لتشرق شمس الحرية على فلسطين الحبيسة من استعمار إلى استعمار منذ ما يقارب خمسمائة عام.

زيارة جديدة لفلسطين تؤكد الحق التاريخي للفلسطينيين في الوجود والحياة. هذا الشعب المناضل الذي لم تخبُ شعلة نضاله قيد أنملة، بل كلما هبت الرياح العاتية الصهيونية زادته تألقًا في النضال من أجل اقتلاع الاحتلال من جذوره وإقصائه.

زيارة جديدة لفلسطين تؤكد تشبث الشعب الفلسطيني بالحياة والحق والحرية والكرامة.

زيارة جديدة لفلسطين تنذر بزوال دولة الاحتلال البغيض.

وقفت فلسطين بماضيها وحاضرها ومستقبلها لتؤكد للعالم أجمع أنها أقوى من كافة الحملات والاستعمارات والويلات التي حلت بها، فهم زائلون، أما هي فباقية شامخة أبية. فالمقاومة ليست خيارًا للشعب الفلسطيني بل هي أساس نضالي تبنّى زوال هذا الاحتلال ودولته.

ثبت المراجع

أولًا: المراجع العربية

الكتب العربية

1. بلادنا فلسطين، مصطفى مراد الدباغ.
2. معجم البلدان، ياقوت الحموي.
3. الروضتين في تاريخ الدولتين، أبو شامة المقدسي.
4. الكتاب المقدس: التوراة والإنجيل.
5. الطيبة عبر العصور، أندراوس الحنّا ونعيم طايع.
6. الأردن تاريخ وحضارة آثار، الأب لويس مخلوف.
7. تاريخ الحروب الصليبية، ر. س. سمايل.
8. المسيحية المعاصرة في الأردن وفلسطين، الأب د. حنا كلداني.
9. تاريخ الحروب الصليبية.
10. الوقائع الفلسطينية.
11. الموسوعة الفلسطينية: كتاب رام الله.
12. عكا عاصمة غير متوجة.
13. حيفا.. قصة مدينة.
14. كتاب فلسطين الإحصائي لعام 2015.

المجلات والدوريات

1. مجلة «العربي» الكويتية، العدد 472، آذار 1998.
2. نشرة أصدرتها وزارة السياحة الفلسطينية عن متحف ياسر عرفات.
3. نشرة تعريفية عن جامعة بيرزيت، من إصدارات الجامعة.
4. صحيفة «البيان»، شجرة الزيتون.. ثقافة الحياة والسلام، 2/ 12/ 2012.
5. مجلة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد 139، أكتوبر 2006.

التقارير الرسمية

1. تقرير صادر عن دائرة الإحصاء المركزية/ القدس.
2. تقرير صادر عن مؤتمر التجارة والتطوير لعام 2011.
3. تقرير صادر عن الأونكتاد بعنوان: قطاع الزراعة الفلسطينية المحاصرة.
4. تقرير إحصائي من سلطة النقد الفلسطيني.
5. تقرير عن سلطة الجودة الفلسطينية لعام 2010.
6. تقرير عن أداء الاقتصاد الفلسطيني لعام 2019، التعداد الزراعي الفلسطيني، الجهاز المركزي للإحصاء.

المواقع الإلكترونية

1. موقع واي باك مشين، تاريخ القدس القديم في الفترة الكنعانية 1800–1000 قبل الميلاد.
2. موقع واي باك مشين، تاريخ أريحا.
3. ويكبيديا، عن حدائق البهائيين/ حيفا.

الكتب الأجنبية

1. Time Line for the History of Jerusalem.
2. Bosworth Clifford Edmund 2007, Historic Cities of the Islamic World.
3. Cities of the Middle East and North Africa, Historic Encyclopedia.
4. Schreiber 2003, After Ice age: A global Human History 20000-5000 BC.
5. Tourism in Bethlehem, government document saved in Palestinian National Information Center.

م. مهدي حنا

- مواليد مدينة القدس عام 1966.
- حاصل على شهادة الماجستير في الهندسة المدنية من الاتحاد السوفييتي عام 1989. عمل ويعمل في مجال الهندسة المدنية في العديد من الدول العربية والأجنبية، متخصص في الدراسات الإنشائية لتدعيم وإصلاح المباني الخرسانية والمعدنية.
- يمارس الكتابة الصحفية، وله العديد من الكتب والمقالات في السياسة إلى جانب عمله الهندسي.
- عضو نقابة المهندسين الأردنيين.
- عضو جمعية المهندسين الإماراتيين
- عضو الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين.
- عضو اتحاد كتاب وأدباء الإمارات.
- عضو مؤسس ورئيس سابق لمنتدى الثقافة البيئية والسكانية الأردني.
- عضو مؤسس في نادي الصداقة الإماراتي – الفلسطيني.

- صدر له:

1. الشعبوية بين هوجو تشافيز وجمال عبد الناصر.. وقائع التغيير وإخفاق المسير، دار الطليعة، بيروت، 2011.
2. الفقر صناعة الرأسمالية.. عالم متبدل وآفاق واعدة، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمّان، 2016.
3. الذكاء الاصطناعي والصراع الإمبريالي، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2020.

فهرس المحتويات

الإهداء.....5

المقدمة 7

رحلة الذهاب إلى فلسطين.....**10**

الجولة الأولى: الطيبة.....26

الطيبة.. عبق الماضي وزخم الحاضر.....34

الأماكن التاريخية في الطيبة.....43

المدارس في الطيبة 46

المؤسسات في الطيبة 47

الجولة الثانية: مدينة رام الله.....54

الجولة الثالثة: متحف الشهيد ياسرعرفات 65

الجولة الرابعة: مدينة أريحا.....75

الجولة الخامسة: جامعة بيرزيت 81

الجولة السادسة: بيت لحم، بيت ساحور، بيت جالا.....83

الجولة السابعة: مدينة القدس.....96

الجولة الثامنة: مدن الساحل الفلسطيني..... 117

يافا..... 119

رأس الناقورة 123

عكا 126
حيفا 130
واقع الحياة الفلسطينية في ظل الاحتلال 135
الإنتاج الزراعي في الريف الفلسطيني 138
واقع الحياة الاجتماعية في فلسطين..... 163
الوضع الاقتصادي الفلسطيني 177
مراحل تطور الحياة السياسية والحزبية في فلسطين 184
النضال الوطني الفلسطيني وأساس المقاومة 209
خاتمة 221
ثبت المراجع 223
سيرة للمؤلف 227